لغز الحقيبة السوداء



محمود سالم

لغز الحقيبة السوداء

تأليف
محمود سالم



لغز الحقيبة السوداء

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩ ٢٣٦٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

المطاردة

كان جسم «عاطف» كله يرتجف، وهو يقف منحنيًا تحت الكوبري الصغير قرب محطة المعادي. وكانت السماء تُمطر بشدة، والبرد قارس، والظلام دامس ...

ولم يكن هذا الكوبري إلَّا معبرًا صغيرًا فوق قناةٍ جافة، لهذا لم يكن في إمكان «عاطف» أن يقف معتدلًا؛ حتى لا يصطدم رأسه بخشب الكوبري ... وفوق هذا الخشب كان «عاطف» يسمع بوضوح صوت أقدام الرجلَين اللذين كانا يُطاردانه منذ قليل ... بل كان في إمكانه أن يسمع بعض كلماتٍ ممَّا كانا يتبادلانه من حديث ... كانت كلمة «الحقيبة» تتردَّد باستمرار؛ فقد كانا يُطاردانه من أجلها ... وكانت الحقيبة في يده ... ولو فكر أحدهما أن ينحني وينظر تحت الكوبري لوجد الحقيبة وقد أمسكها «عاطف» بين يديه، وضمَّها إلى صدره ...

وأخذ «عاطف» يُفكِّر فيما حدث في الدقائق العشر الماضية، وهو في غاية الدهشة والفزع معًا ... ولا يجد تعليلًا واضحًا لهذه المطاردة المخيفة التي جرت منذ دقائقَ قليلة.

منذ ربع ساعة تقريبًا خرج والده على موعدٍ في «القاهرة»، وكانت الساعة حوالي الثامنة، والريح عاصف، ولكن المطر لم يكن قد بدأ ... وجلس «عاطف» و«لوزة» ووالدتهما يتفرَّجون على التليفزيون ... ثم دقَّ جرس التليفون، وعندما قام «عاطف» بالرد عليه وجد والده يُحدِّثه من المحطة ... وطلب منه أن يأتي له بحقيبته السوداء من نوع «السامسونايت»، وهو نوعٌ ثمينٌ من حقائب اليد، كان والده قد أحضرها معه أثناء زيارة لأوروبا ...

وارتدى «عاطف» ثيابه مسرعًا، ولبس البالطو اتقاءً للبرد، ثم حمل الحقيبة وأسرع إلى المحطة، ولم يكد يُغادر المنزل حتى بدأ المطر يهطل بشدة، وأسرع المارَّة في سيرهم حتى بدأت الشوارع تخلو منهم. وعندما وصل «عاطف» إلى قرب المقهى وهو يجري، فُتح

بابه، وظهر رجلان مسرعان، وكان ضوء المقهى القوي قد وقع على «عاطف» وهو يحمل حقيبة والده، فصاح أحد الرجلَين مشيرًا إليه: «هذه هي الحقيبة»، ثم اندفعا إليه … وقد كانت قدما «عاطف» أسرع من تفكيره؛ فجرى أمامهما كالسهم عائدًا من الطريق الذي أتى منه، وسمع خطواتهما خلفه، فزاد من سرعته، وهو لا يدري لماذا يُطاردانه … وماذا يريدان من الحقيبة؟! …

ودار «عاطف» حول إحدى الأشجار الضخمة، ثم أسرع ينزل تحت الكوبري حتى لا يلحق به الرجلان … اللذان سمعهما يتحدَّثان في غضبٍ واضح … خاصةً وأن أحدهما زلَّت قدمه ووقع في الوحل.

مضت مدة و«عاطف» في مكانه، وكان الرجلان قد انصرفا منذ قليل بعد أن يئسا من العثور عليه … فتسلَّل بهدوءٍ من تحت الكوبري، ثم أسرع إلى منزله، وكان والده قد استغيبه، فاتصل بالمنزل مرةً أخرى، ودخل «عاطف» في الوقت الذي كان والده يتحدَّث في التليفون، فأسرع يرد عليه وشرح له ما حدث …

قال والد «عاطف»: شيء مدهش للغاية؛ فليس في الحقيبة نقود أو أوراق تُهم أحدًا غيري! … على كل حال سأحضر أنا لأخذ الحقيبة، فلا تخرج …

جلس «عاطف» بعد أن خلع ثيابه المبلَّلة يروي لوالدته و«لوزة» ما حدث في الدقائق الماضية، فقالت «لوزة»: لا بد أن هذَين الرجلَين ظنَّا أن في الحقيبة نقودًا، فأرادا سرقتها.

عاطف: لا أعتقد، إنما الأقرب إلى الحقيقة أنهما فقدا حقيبةً مثلها وكانا يبحثان عنها، وهذا النوع من الحقائب ماركة «سامسونايت» متشابهة، وقد ظنَّا أن هذه الحقيبة حقيبتهما، فطارداني لاستعادتها.

لوزة: وأين ذهبت حقيبتهما الأصلية؟

عاطف: لا أدري … ولا أظننا سنعرف مطلقًا؛ فقد انتهت الحكاية كلها.

حضر والد «عاطف» وأخذ الحقيبة، فقال له «عاطف» وهو يُوصله إلى الباب: حذارِ يا أبي، فقد يُحاول الرجلان خطف الحقيبة في الطريق.

ابتسم الوالد وهو يقول: لا أظن أنهما يجرؤان على هذا … وخرج والد «عاطف» وقضت الأسرة فترةً طويلةً من الليل تتحدَّث عن هذه المطاردة الغريبة، واتصل «عاطف» ببقية المغامرين الخمسة؛ «تختخ» و«محب» و«نوسة»، وأخبرهم بما حدث. ولمَّا كان اليوم التالي يوم الجمعة، هو أول أيام إجازة نصف السنة؛ فقد اتفقوا جميعًا على اللقاء في منزل «عاطف» في الصباح. فإذا أشرقت الشمس فسوف يلتقون في الحديقة …

ولحسن الحظ كان صباح اليوم التالي صباحًا شتويًّا جميلًا؛ فقد انقشعت السحب السوداء … وأشرقت الشمس، فبعثت في أوصال الدنيا دفئًا جميلًا، واجتمع الأصدقاء حول فنجانٍ من الشاي الساخن، وبدأ «عاطف» يروي لهم مغامرة الأمس مرةً أخرى … وقرب نهايتها وصل والد «عاطف»، وجلس مع الأصدقاء يستمع … وعندما انتهى «عاطف» من حكايته قال والده: إن عندي بقيةً لهذه القصة … لقد حذَّرني «عاطف» أمس من أن الرجلَين قد يُحاولان الحصول على الحقيبة مرةً أخرى مني، وقد استبعدت هذا، ولكني شعرت أمس وأنا أركب القطار إلى القاهرة أنني مراقب من شخصٍ ما … وعندما نزلت في محطة باب اللوق، وفي الزحام امتدَّت يد إلى الحقيبة تُحاول انتزاعها مني، وعندما التفتُّ لأبحث عن الشخص الذي كان يقوم بالمحاولة، اختفى وسط الزحام … وأسرعت أركب تاكسيًا … لأتجه به إلى مكتب المحامي الذي كنت على موعدٍ معه … ومرةً أخرى شعرتُ أن سيارةً تتبع التاكسي الذي أركبه … ثم تقف على مبعدةٍ من مكتب المحامي … وهكذا قرَّرت أن أترك الحقيبة عنده حتى لا أتعرَّض لمحاولةٍ أخرى عندما أعود ليلًا.

وسكت والد «عاطف»، وأخذ المغامرون الخمسة يُفكِّرون فيما سمعوا، وأخيرًا قال «تختخ»: هل أستطيع أن أعرف قيمة الأوراق التي كانت في الحقيبة …؟

الوالد: إنها أوراق خاصة بقضية ميراث قطعة أرضٍ ورثتها والدة «عاطف» في القرية، وهناك نزاعٌ بيننا وبين بعض أقاربها على هذه الأرض.

تختخ: أليس من الممكن أن يكون هؤلاء الأقارب يُريدون الاستيلاء على هذه الأوراق ليكسبوا القضية؟

الوالد: لا أعتقد أنهم يمكن أن يقوموا بهذه المحاولة، خاصةً وأنهم من الفلَّاحين البسطاء … ولا يمكن أن يُفكِّروا في هذه الطرق العنيفة للاستيلاء على الأوراق، خاصةً وأنها لا تُؤثِّر كثيرًا في سير القضية.

عاطف: لعلهم اتفقوا مع عصابةٍ من اللصوص لسرقة الأوراق …

الوالد: وكيف عرفوا أنك ستخرج في الليل تحمل هذه الأوراق لي؟ إن هذا يستدعي معرفتهم بالموعد الذي كان بيني وبين المحامي … ومعرفتهم بأنني سأنسى هذه الأوراق في البيت … وأنني سأتحدث تليفونيًّا … وبأنك ستحمل الأوراق في الحقيبة … إنها أشياء شبه مستحيلة!

محب: إذن لماذا حاول هذان الشخصان الاستيلاء على الحقيبة من «عاطف»؟ لقد كان من الممكن أن تقبض الشرطة عليهما.

تختخ: إنني أُرجِّح أن هذَين الشخصَين فقدا حقيبةً مماثلةً لهذه الحقيبة، وكانا يبحثان عنها في هذه اللحظة، فلمَّا شاهدا «عاطف» اعتقدا أن الحقيبة التي يحملها هي الحقيبة التي ضاعت أو سُرقت منهما، فحاولا الاستيلاء عليها …

قال والد «عاطف» وهو يُغادر مكانه: هذا هو الاحتمال الأقرب إلى المعقول …

وبعد أن انصرف والد «عاطف»، أخذ المغامرون الخمسة يتجادلون بحماسٍ حول محاولة خطف الحقيبة، قال «تختخ»: هناك شيءٌ هام نسيناه؛ إن أي شخصٍ عندما يفقد شيئًا فإن أول إجراءٍ يتخذه هو أن يذهب إلى قسم الشرطة للإبلاغ عنه … ولعل الشاويش «فرقع» يقوم الآن ببحث بلاغ ضياع حقيبة سوداء من طراز «سامسونايت» شبيهة بحقيبة والد «عاطف» … وعلينا أن نتصل بالشاويش لنعرف منه من الذي قدَّم البلاغ …

وافق الجميع على هذا الاقتراح، وأسرعوا إلى درَّاجاتهم للذهاب إلى قسم الشرطة.

ماذا في الحقيبة؟

عندما وصل الأصدقاء إلى قسم الشرطة وجدوا الشاويش «فرقع» يجلس أمام القسم في الشمس … يشرب الشاي، ويقرأ الجرائد، فاقتربوا منه في هدوء، وكانت مفاجأةً لهم أن استقبلهم الشاويش بترحاب … وقد كان المعتاد أن يُطاردهم بكلماته بمجرَّد أن يقع بصره عليهم …

أحاط الأصدقاء بالشاويش «فرقع» … وانتهزوا الفرصة ليسألوه عن آخر الحوادث التي وقعت بالمعادي؛ لعله يُخبرهم ببلاغٍ عن فقد الحقيبة السوداء، ولكن الشاويش تحدَّث إليهم عن سرقة فراخ … وعن فقد طفلٍ صغير، والعثور عليه قرب المحطة … وعن مشاجرةٍ وقعت بين سيدتَين؛ لأن أحد أطفال الأولى قطف بعض الورد من حديقة الثانية … وكلها حوادث بسيطة ممَّا يقع كل يوم … ولكن الشاويش لم يصل أبدًا إلى حادث الحقيبة … فقال «تختخ» له بصراحة: لقد جئنا لنسألك عن حقيبةٍ سوداءٍ مفقودة …

بدأ الشاويش يعود إلى طبيعته فقال متضايقًا: حقيبةٌ سوداء! …

قال «تختخ» مبتسمًا: من طراز «سامسونايت» يا شاويش.

وقف الشاويش وقال: سامو… ماذا؟ إنني لم أسمع عن حقائبَ لها أسماء … إنكم تُحاولون السخرية مني كعادتكم …

تختخ: أبدًا يا شاويش «علي». لقد وقعت أمس مطاردة مثيرة بين رجلَين وصديقنا «عاطف»، وكان الرجلان يُحاولان خطف حقيبة والد «عاطف»، فهل لم يُبلِّغ أحد عن سرقة حقيبةٍ سوداء؟ …

ضاق الشاويش بهذا الحديث، فصاح بهم كعادته: هيا فرقعوا من هنا. ليست هناك حقائب من أي نوع … ولم يُبلِّغ أحد عن سرقة شيءٍ اسمه «سامو»، فلا تُضيِّعوا وقتي … هيا … هيا … فرقعوا …

وانصرف الأصدقاء وهم يضحكون، وقال «عاطف» معلِّقًا: لقد انتهت المغامرة قبل أن تبدأ ... وعلينا أن نقضي إجازةً هادئةً بلا ألغازٍ ولا مغامرات ...

ردَّت «لوزة» التي لم تكن تفقد الأمل في المغامرات: إن اللغز لم ينتهِ بعد ... فهناك شيء نسيناه، وهو الرجلان اللذان طارداك، لقد رأيتَهما، وفي إمكاننا البحث عنهما ...

نوسة: هذا صحيح ... إن علينا أن نبحث عن هذَين الرجلَين.

عاطف: في الحقيقة إنني لم أستطِع رؤيتهما جيدًا؛ فقد كانا في الظلام، وكان ضوء المقهى في ظهرهما، فلم أستطِع تبيُّن ملامحهما جيدًا ...

محب: ألا تستطيع معرفتهما إذا شاهدتهما؟

عاطف: لست متأكِّدًا ... وما أذكره أن أحدهما كان طويل القامة، واضح القوة، بينما كان الآخر قصيرًا ومنكوش الشعر ...

تختخ: إن هذه أوصاف ليست كافيةً للبحث عن الرجلَين ... ولن نستطيع أن نبحث في المعادي كلها عن رجلَين لهما هذه الصفات، ولعلهما ليسا في المعادي الآن ... وكل ما نستطيع أن نفعله أن ننتظر ونرى.

نوسة: ننتظر ماذا؟

تختخ: ننتظر أن تقع أحداث جديدة، فما دام الرجلان يُريدان الحصول على الحقيبة، فلن يكفَّا عن البحث عنها ...

وقد صدق «تختخ» في استنتاجه؛ ففي اليوم التالي وقعت المفاجأة الثانية، فقد اتصل المحامي بوالد «عاطف» ليُخبره أن حقيبته التي تركها عنده مساء الخميس سُرقت من مكتبه! فقد أغلق المكتب ليلًا، وفي اليوم التالي — الذي كان يوم الجمعة — لم يفتح؛ لأنه يوم إجازته الأسبوعية. وعندما ذهب صباح السبت إلى المكتب وجد الباب مكسورًا، والحقيبة قد سُرقت ... وقد اتضح أن اللصوص لم يسرقوا شيئًا مطلقًا سوى الحقيبة ...

لقد تحرَّكت الأحداث كما توقَّع «تختخ» بالضبط، واجتمع الأصدقاء مرةً أخرى وأمامهم هذه الحقائق الجديدة.

قال «تختخ»: لقد بدأت أُكوِّن فكرةً عامةً عن هذه الحوادث المحيطة بالحقيبة السوداء، فنحن نعلم أن هناك شخصَين حاولا خطف الحقيبة من «عاطف»، وأمامنا احتمالان ... الأول: أنهما كانا يقصدان سرقة هذه الحقيبة الخاصة بوالد «عاطف»، والثاني: أنهما فقدا حقيبةً مثلها في تلك الليلة، وخرجا للبحث عنها ... وعندما شاهداها في يد «عاطف» انقضَّا عليه محاولَين أخذها على اعتقاد أنها الحقيبة التي فقداها ...

محب: وعلينا أن نبحث أي الاحتمالَين أقرب إلى الصواب، حتى نتمكَّن من متابعة الحقيبة …

تختخ: هذا صحيح، فلْنبحث الاحتمال الأول، وهو أنهما كانا يقصدان سرقة الحقيبة الخاصة بوالد «عاطف» وهو احتمال بعيد … أو أنا أستبعده؛ لأن معنى ذلك أنهما كانا يعلمان بموعد وصول «عاطف» إلى المقهى، وهي مسألة شبه مستحيلة، بالإضافة إلى أن والد «عاطف» أخبرنا أن الأوراق التي في الحقيبة ليس لها أهمية كبيرة، وأنه يستبعد أن يقوم أقاربه بمحاولة سرقتها …

نوسة: ولكن اللصين سرقاها من مكتب المحامي …

تختخ: أعتقد أنهما سرقاها ظنًّا منهما أنها الحقيبة التي ضاعت منهما؛ فقد تبعا والد «عاطف» إلى مكتب المحامي تحت تأثير هذا الظن، وقاما بسرقتها …

لوزة: هناك سؤال هام وهو: إذا كانت الحقيبة ملكهما وضاعت منهما، لماذا لم يقوما بإبلاغ الشرطة بضياعها؟ …

تختخ: هذا سؤالٌ هام فعلًا يا «لوزة»، والإجابة عنه واحدة، هو أن الرجلَين لا يريدان أن تتدخَّل الشرطة في الموضوع …

لوزة: لماذا؟ …

تختخ: ربما لأنهما قد سرقا الحقيبة من صاحبها الأصلي … أو أن في الحقيبة شيئًا لا يُريدان أن تعرفه الشرطة …

لوزة: ولماذا لم يُبلغ صاحبها الأصلي عن سرقتها؟ …

تختخ: لعله أبلغ، ولكن ليس في المعادي … فقد تكون قد سُرقت في القاهرة أو أي مكانٍ آخر … وفي إمكاننا سؤال المفتش «سامي» عن بلاغٍ تقدَّم به شخص عن فقد حقيبةٍ سوداء؛ فقد نستطيع عن طريق هذا البلاغ متابعة الحقيبة …

عاطف: سنجد بلاغًا بضياع حقيبةٍ سوداء …

محب: من أين عرفت؟ …

عاطف: المسألة بسيطة؛ سيُبلِّغ محامي والدي الشرطة عن سرقة الحقيبة من مكتبه!

وابتسم «تختخ» قائلًا: هذا صحيح، ولكن سوف نستبعد هذا البلاغ من حسابنا.

وهكذا قام «تختخ» بالاتصال بالمفتش «سامي» تليفونيًّا، وروى له ما حدث، وطلب منه أن يسأل عن بلاغٍ آخر غير بلاغ المحامي عن فقد حقيبةٍ سوداء …

قال المفتش: لقد كنتُ أتصوَّر أنكم لا تقومون بمغامراتكم إلَّا في الصيف …

قال «تختخ»: هذه مغامرة «على الماشي»، ولا أعتقد أنها ستكون مغامرةً هامة …

ردَّ المفتش: سأبحث، ولكن سوف يستغرق ذلك بعض الوقت …

تختخ: نحن في الانتظار.

لم يكن أمام المغامرين الخمسة شيء يفعلونه بخصوص لغز الحقيبة السوداء، سوى أن ينتظروا ردَّ المفتش «سامي»، فقضَوا بداية أيام الإجازة يلتقون صباحًا في الشمس في حديقة منزل «عاطف» يلعبون ويتحدَّثون. وفي المساء ينصرف كلٌّ منهم إلى مذاكرته وإلى واجبه المدرسي … فقد كانوا جميعًا من الطلبة المتفوِّقين …

وفي اليوم الثالث تحدَّث المفتش «سامي» إلى «تختخ» تليفونيًّا، وأخبره أنه ليست هناك بلاغات عن فقد حقيبةٍ سوداء، عدا البلاغ الذي تقدَّم به محامي والد «عاطف» عن سرقة الحقيبة من مكتبه …

قال «تختخ» وهو يُبلغ الأصدقاء عن حديث المفتش: وهكذا لم يعد أمامنا شيء نفعله، إلَّا انتظار بحث رجال الشرطة عن الرجلَين، فعند القبض عليهما سوف نعرف لماذا حاولا سرقة الحقيبة من «عاطف»، وهل هي حقيبتهما فعلًا أم حقيبة شخص آخر …

وسكت المغامرون الخمسة … وقد ضايقهم أن يُفلت منهم اللغز بهذه السرعة، وطبعًا كانت أكثرهم ضيقًا «لوزة» التي كانت تُحب المغامرات والألغاز أكثر من أي شيءٍ آخر، فقالت لـ «تختخ»: هناك شيءٌ هام في هذا اللغز لم نبحثه، ولعله يكون بدايةً لحل اللغز …

التفت الأصدقاء جميعًا إليها بنظراتٍ متسائلة، وقال شقيقها «عاطف»: ما هو الشيء الذي نسيناه جميعًا، وعرفتِه أنت في هذا اللغز؟ …

لوزة: نسينا المكان الذي وقع فيه حادث المطاردة … لقد خرج الرجلان من المقهى مسرعَين كما قلت … وهذا يعني أنهما كانا في المقهى، أليس كذلك؟ …

عاطف: إنه كذلك …

لوزة: في هذه الحالة لا بد أن الحقيبة فُقدت منهما داخل المقهى، وعندما اكتشفا سرقتها اندفعا إلى الخارج للبحث عنها …

سكت «عاطف» فقال «تختخ» مشجِّعًا «لوزة»: نعم … هذا كلامٌ معقولٌ جدًّا … فماذا تقترحين يا «لوزة»؟

لوزة: أقترح أن نذهب إلى المقهى لعلنا نعرف شيئًا جديدًا عن الحقيبة أو الرجلَين، فقد يكون أحد الجالسين قد شاهد كيف سُرقت الحقيبة من الرجلَين …

نوسة: ولكن الحادث وقع منذ ثلاثة أيام يا «لوزة»، ولا يمكن أن يكون رُوَّاد المقهى ما زالوا في أماكنهم منذ ذلك التاريخ! …

ضحك الأصدقاء على هذا التعليق الساخر ... ولكن «لوزة» العنيدة استمرَّت في الكلام قائلة: هناك أشخاص في المقهى لا يتغيَّرون؛ «صاحب المقهى» ... و«الجرسونات»، ومن الممكن سؤالهم ...

قال «تختخ»: معكِ حق ... وسأقوم أنا نفسي ببحث هذه المسألة في الصباح ...

الشاهد الوحيد

في صباح اليوم التالي كانت السماء تُمطر، ولكن «تختخ» قرَّر أن يخرج، لقد كان يُحب المطر، ويتمتع برؤيته وهو يتساقط على الأشجار والشوارع والبيوت ... وهكذا ارتدى ملابس ثقيلة، وخرج متجهًا إلى المقهى.

لم يكن المطر شديدًا، فاستمتع «تختخ» برحلته ... ولم يُضايقه عندما اقترب من المقهى إلَّا أن حذاءه قد اتسخ ...

دخل «تختخ» المقهى ونظر حوله ... كان صاحب المقهى يجلس على منصةٍ عاليةٍ يقبض ثمن المشروبات ويُدخِّن الشيشة ... واثنان من الجرسونات يقومان بتقديم الطلبات إلى رُوَّاد المقهى ... كان رجلًا ضخمًا يرتدي الملابس البلدية، ذا شاربٍ كبير، ووجهٍ تبدو عليه علامات الخشونة، فتردَّد «تختخ» قليلًا، ولكنه في النهاية تقدَّم إليه، وبعد أن حيَّاه سأله عن الحقيبة السوداء والرجلَين، فنظر إليه المعلم في ضيقٍ وسخريةٍ وقال: حقيبة! ... أيُّ حقيبةٍ يا أستاذ! ... سوداء ولها ماركة! ... هذا آخر شيءٍ كنتُ أتصوَّره في حياتي ... حقيبة لها ماركة ... بتقول حضرتك «سامو»؟ هل تتصوَّر أنني تاجر حقائب حتى أعرف أنواعها؟! يا أستاذ أنا لم أرَ شيئًا في تلك الليلة ... وقهوتي قهوة محترمة لا تقع فيها سرقات ولا حوادث!

وسحَب المعلم نفَسًا من الشيشة، ثم عاد يقول: وأنت ما هو دخلك في سرقة الحقائب أو غيرها ... أنت ما زلت تلميذًا فانتبه لدروسك ودعك من السرقات والماركات.

وترك «تختخ» المعلم وهو في غاية الضيق، ولكنه قرَّر برغم كل شيء أن يسأل الرجلَين اللذين يعملان في المقهى، ولكنه لم يتلقَّ منهما ردًّا مفيدًا؛ فقد سخرا منه كما سخر المعلم، وطلبا منه أن يلتفت إلى دروسه. وبدلًا من أن يُغادر «تختخ» المقهى ويكتفي بما حدث، قرَّر أن يبقى عندًا في المعلم ومساعدَيه. فاختار كرسيًّا قرب الشرفة الزجاجية، وطلب كوبًا

من الشاي ... وأخذ يتفرَّج على الطريق، والمطر ... ويُفكِّر في لغز الحقيبة السوداء ... وخيبة الأمل التي أصابته في المقهى.

خلال الدقائق التي قضاها «تختخ» في المقهى لم ينتبه أن هناك شخصًا كان يراقبه ... كان هذا الشخص ولدًا صغيرًا ممزَّق الثياب، يحمل صندوقًا لمسح الأحذية ... راقب هذا الولد «تختخ» منذ دخوله إلى المقهى، وسؤاله المعلم والجرسونَين، واستطاع أن يسمع الأسئلة التي سألها لهم ...

اقترب الولد الصغير من «تختخ» قائلا: أتمسح حذاءك يا أستاذ ...؟

قال «تختخ» دون أن ينظر إليه: لا ... شكرًا.

ألَحَّ الولد قائلًا: إن حذاءك متسخٌ، ويحتاج إلى مسح.

تختخ: سأمسحه الآن، ويتسخ بعد خروجي!

ابتسم الولد قائلًا: إنك تُذكِّرني بالرجل الذي لا يمسح حذاءه في الشتاء أبدًا؛ لأنه سيتسخ كل يوم ... إنها نكتة.

تختخ: ليست على كل حال نكتةً مضحكة ...

قال الولد بإلحاح: في إمكاني أن أقول لك نكتةً مضحكة ...

تختخ: إنني لست على استعدادٍ لسماع نكت الآن ...

الولد: إنها نكتة عن حقيبةٍ سوداء ...

التفت «تختخ» إلى الولد في اهتمامٍ وقال: ماذا تقصد؟ هل تعرف شيئًا عن الحقيبة السوداء؟ ...

الولد: نعم ... لقد سمعتك تسأل عن حقيبةٍ سوداء كانت موجودةً في المقهى مع شخصَين منذ أربعة أيام ...

تختخ: وماذا تعرف عنها؟

الولد: هل أمسح لك الحذاء؟ ...

تختخ: طبعًا ... طبعًا ...

ثم مدَّ قدمه للولد الذي أسرع يجلس أمامه، ويضع الصندوق، ويبدأ العمل بهمةٍ ونشاط.

مال «تختخ» إلى الأمام قائلًا: قل لي ماذا تعرف عن الحقيبة السوداء؟ هل رأيتَها في تلك الليلة؟ ...

قال الولد: نعم ... لقد ...

وقبل أن يُتم جملته حضر الجرسون يحمل الشاي إلى «تختخ»، فسكت الولد قليلًا حتى انصرف الجرسون، ثم عاد إلى الحديث قائلًا: لقد شاهدتُ كل شيء في تلك الليلة.

خفق قلب «تختخ» بشدة وهو يسأل: قل لي ماذا شاهدت بالضبط؟

ردَّ الولد في صوتٍ هامسٍ وهو مستمرٌّ في عمله: لقد شاهدتُ الرجلَين عندما دخلا المقهى. كان أطولهما يحمل حقيبةً سوداء من نوعٍ فاخر.

أدرك «تختخ» أن الولد يقول الصدق؛ فأحد الرجلَين كما وصفه «عاطف» كان طويلًا ... فقال له: ثم ماذا؟

الولد: جلس الرجلان قرب التليفون، وأخذا يتحدَّثان باهتمام، أحدهما إلى الآخر، ثم قام أحدهما للاتصال بالتليفون، وبعد لحظاتٍ أشار إلى زميله ليتحدَّث هو الآخر، فقام.

وسكت الولد لحظات، فقال «تختخ» ليدفعه إلى الحديث: قل كل شيء، وسأعطيك عشرة قروشٍ كاملة ...

الولد: وفي هذه اللحظة اقترب ولدٌ متشرِّدٌ من الحقيبة وحملها في هدوء، ثم خرج مسرعًا من المقهى ... والتفتَ أحد الرجلَين فشاهد الولد وهو يخرج من الباب، فاندفع خلفه، وكذلك اندفع الرجل الآخر، وخرجا من الباب مسرعَين دون أن يشعر أحدٌ بما حدث؛ فقد كان الموجودون بالمقهى مشغولَين بلعب الطاولة والكوتشينة، وكنتُ الوحيد الذي رأى كل شيء؛ فقد كنت أتقدَّم من الرجلَين لأمسح لمن يشاء منهما حذاءه ...

صمت الولد ... وصمت «تختخ» وقد أخذت الأفكار تدور برأسه مسرعة ... لقد صحَّ استنتاجه في أن الرجلَين فقدا الحقيبة، وعندما خرجا إلى الطريق وشاهدا «عاطف» ظنَّا أن الحقيبة التي يحملها هي حقيبتهما المسروقة.

انتهى الولد من مسح الحذاء، فمدَّ «تختخ» يده وأعطاه العشرة القروش، فتناولها في ابتهاجٍ ثم جمع حاجيَّاته واستعدَّ للخروج، ونظر «تختخ» في وجهه يتأمَّله، فبدا له أن عنده كلامًا آخر يُريد قوله، ولكنه متردِّدٌ فقال له: أليس هناك شيءٌ آخر تود أن تقوله لي.

تردَّد الولد قليلًا، ثم قال وهو ينظر حوله في خوف: أنصحك لا تتدخَّل في هذا الموضوع ... ثم انصرف خارجًا من المقهى.

أحسَّ «تختخ» أن ما لم يقله الولد له أهمية كبيرة، فاستدعى الجرسون بسرعة ثم أعطاه الحساب ... واندفع خارجًا خلف الولد.

كان المطر قد توقَّف منذ فترة ... وعادت الحركة النشطة إلى الشوارع، فأخذ «تختخ» ينظر حوله هنا وهناك، دون أن تقع عيناه على الولد؛ فشعر بالضيق إذ ترك هذه الفرصة

الذهبية تضيع من بين يدَيه. فمشى يتلفَّت حوله لعله يجد الولد مرةً أخرى، ولكنه كان قد اختفى تمامًا.

لم يجد «تختخ» فائدةً من البقاء في الشوارع، وقرَّر أن يعود إلى البيت، ويُقابل بقية الأصدقاء، على أن يعود للبحث عن الولد مرةً أخرى …

اتصل «تختخ» ببقية الأصدقاء، واتفقوا على اللقاء في حديقة منزل «عاطف» كالمعتاد، ولم تمضِ دقائق حتى كانوا يستمعون إلى «تختخ» وهو يروي لهم ما حدث … وكانت «لوزة» أسعدهم جميعًا؛ فهي التي نصحت أن يذهب أحدهم إلى المقهى لعله يعثر على أثرٍ ما يُرشدهم في هذه المغامرة، وقد صدق ظنها … وبدلًا من أن ينتهي اللغز قبل أن يبدأ كما قال «عاطف»، أصبح عندهم لغز كامل …

وعندما انتهى «تختخ» من روايته … قال «محب»: ولكن ماذا يقصد الولد من تحذيرك ألَّا تتدخَّل في هذا الموضوع؟ …

تختخ: لا أدري … ولكن من المؤكَّد أنه يعلم أشياء هامة … كأن تكون هناك عصابة كبيرة وراء هذه الحادثة … أو شيء من هذا القبيل …

نوسة: على كل حال إن مهمة البحث عن هذا الولد مهمة سهلة؛ فهو في المعادي، ويتردَّد على المقهى، ومن الممكن مراقبته حتى نعثر عليه … وفي إمكاننا أن نُقنعه بأن يروي لنا ما يعرفه …

تختخ: هذا صحيح … وهذه مهمتنا من الآن …

قالت «لوزة» متحمِّسة: إنني على استعدادٍ لأن أذهب حالًا، وسآخذ «زنجر» معي …

تختخ: ليس بهذه السرعة. و«زنجر» لا يُحب الخروج في الشتاء، إنه يجلس في المطبخ بجوار الأكل والدفء … وعلى كل حال سوف نُقسِّم أنفسنا إلى فِرقٍ للمراقبة، حتى نعثر على الولد … وستكون مهمتكم في الصباح، وسأذهب أنا في المساء.

لغز جديد

اختفى ماسح الأحذية الصغير، وكأنه «فص ملح وذاب» ... وبرغم أن المغامرين الخمسة راقبوا المقهى طوال النهار وجزءًا من الليل، فإن الولد الصغير لم يظهر مطلقًا، وكأنه كان شبحًا أو حلمًا ...

وفي صباح اليوم التالي للمراقبة قالت «نوسة»: هكذا عدنا إلى طريقٍ مغلق، ولم يعد أمامنا إلَّا أن نُنفِّض أيدينا من هذا اللغز ...

قال «تختخ» في ضيق: إن هذا شيءٌ غير مفهوم ... كيف اختفى الولد بهذه السرعة من أمامي ... ثم اختفى تمامًا؟ يبدو أن هذا لغزٌ آخر، لا يقل غموضًا عن لغز اختفاء الحقيبة ... بل أشد.

محب: لا داعي لليأس بهذه السرعة؛ فقد يظهر الولد اليوم، أو غدًا ونتابع المغامرة.

تختخ: إن ما يُضايقني أن الإجازة ستنتهي سريعًا، وقد لا نتمكَّن من متابعة المغامرة بعد ذلك، وأنا لا أُحب أن أترك شيئًا بلا حل ...

عاطف: في إمكاننا يا «تختخ» أن نسأل عنه؛ فقد يكون مريضًا، أو انتقل إلى مكانٍ آخر، أو ترك مسح الأحذية ... ومن الممكن أن نسأل عنه ماسحي الأحذية في المعادي، فكلهم يعرفون بعضهم بعضا ...

ابتسم «تختخ» قائلا: عظيم! كيف غاب عنَّا هذا الحل البسيط؟ يبدو أن الإنسان عندما يُركِّز تفكيره في شيء ينسى بقية الأشياء ... سنقوم مرةً أخرى بالبحث، وستكون مهمتنا سؤال ماسحي الأحذية.

هكذا قسَّم الأصدقاء أنفسهم مرةً أخرى، وبدأت عملية بحثٍ جديدةٍ عن ماسح الأحذية الصغير. وكانت خطتهم بسيطة ... هي أن يمسح كلٌّ منهم حذاءه عند ماسح أحذية من المتجوِّلين، ويصف له الولد، ويطلب منه معلوماتٍ عنه. ولحسن الحظ استطاع الأصدقاء

في اليوم التالي أن يعثروا على معلوماتٍ طيبةٍ عن الولد؛ فقد عثرت «نوسة» على ماسح أحذية صغير يعرفه، فقال لها إن اسمه «عودة»، وإن والده هو شيَّال عجوز يقف أحيانًا في محطة السكة الحديد اسمه «عباس» …

قرَّر «تختخ» أن يذهب هو للبحث عن «عباس»، ولكي يجد وسيلةً للحديث معه؛ فقد أخذ حقيبةً من البيت وتظاهر أنه عائدٌ من القاهرة، وعندما وجد «عباس» يقف بجوار القطار أعطاه الحقيبة ليحملها له.

كان «عباس» رجلًا عجوزًا قد هدَّته السنون، وكانت يده ترتعش وهو يحمل الحقيبة، حتى أحسَّ «تختخ» بالإشفاق عليه، وكاد يسترد الحقيبة منه، ولكنه تركه يحملها، فقال «عباس»: هل تُريد ركوب تاكسي؟

تختخ: لا، إنني سأذهب إلى البيت مشيًا على الأقدام.

عباس: في هذه الحالة سآخذ خمسة قروش …

تختخ: لا بأس، سأعطيك ما تطلب …

وعندما خرجا من المحطة، وخفَّت حدة الزحام وصوت القطارات، بدأ «تختخ» حديثه قائلًا: لقد كنتُ أعرف ولدك الصغير … فقد مسح لي حذائي …

ردَّ «عباس»: «عودة» … إنه ولدٌ خائب … ومع ذلك كنت أُحبه لأنه آخر أولادي …

تختخ: وأين بقية أولادك؟

عباس: لقد كبروا ووجدوا أعمالًا، ولكنهم لا يُساعدونني … للأسف الشديد لقد أضعت عمري في تربيتهم، ولكن ماذا كانت النتيجة؟!

تختخ: ولماذا لم يدخل «عودة» المدرسة؟ …

عباس: لقد أدخلته المدارس … ولكنه كان يهرب منها ويتبع الأولاد المشرَّدين … وما دام الولد يهرب من المدرسة؛ فإنه لا ينفع مطلقًا، ولم أجد حلًّا له إلَّا أن أشتري له صندوقًا لمسح الأحذية يكسب منه بعض القروش …

تختخ: ولكنني لم أرَه منذ يومين، فأين ذهب؟ …

عباس: لقد ضقتُ به؛ فهو لا يُعطيني شيئًا، وعندما يعود في المساء يطلب طعامًا، وإذا تمزَّقت ثيابه طلب ملابس جديدة، وأول أمس عاد وليس معه مليم واحد … فضربته، وفي الصباح أخذته وسلَّمته للملجأ، وهناك يستطيع أن يأكل ويلبس ويتعلَّم شيئًا ينفعه في مستقبله، بدلًا من هذا الضياع الذي كان يعيش فيه …

تختخ: وفي أي ملجأ أدخلته؟ …

عباس: ملجأ «السيدة زينب»؛ لأنه دخله قبل ذلك وهرب منه، وقد أعدته مرةً أخرى، ولعله يتعقَّل هذه المرة …

كانت هذه المعلومات كافية جدًّا لـ «تختخ»، فشكر عم «عباس» ومنحه عشرة قروش، تقبَّلها الرجل شاكرًا، وحمل «تختخ» الحقيبة، وأسرع إلى البيت عندما اجتمع المغامرون الخمسة، وروى لهم «تختخ» ما حدث، قال «محب»: وماذا سنفعل الآن يا «تختخ» …؟

قال «تختخ» وهو ينظر بعيدًا: إن في ذهني خطةً جديدةً لكسب ثقة «عودة»، والحصول منه على المعلومات التي نُريدها … إن مجرَّد ذهابي إلى الملجأ والحديث إليه قد لا يكفي ليتحدَّث بصراحة، وإذا أبلغنا الشرطة واستجوبته فقد يُنكر كل شيء …

نوسة: ولماذا يُنكر؟

تختخ: لأنه خائف من شيءٍ ما. لعله خائف من العصابة … ولعله عضوٌ فيها لهذا حذَّرني وهرب …

لوزة: ماذا سنفعل إذن؟

وقف «تختخ» وهو يقول: سأطلب من المفتش «سامي» مساعدتي في دخول الملجأ كولد متشرِّد … وهناك سوف أكسب ثقة «عودة» … وأحصل منه على ما أُريد …

محب: ولكنه سيعرفك …

تختخ: لا أظن، فسوف لا يتذكَّر الولد النظيف الذي قابله، ومسح له الحذاء عندما يرى الولد المتشرِّد الذي معه في الملجأ! …

لوزة: ولكن هذه مخاطرة فظيعة يا «تختخ» …

تختخ: إنها تجرِبة جديدة أحب أن أخوضها؛ لأرى الحياة داخل الملجأ، ولعلني أخرج منها بمعلوماتٍ للكشف عن لغز الحقيبة السوداء …

وانفضَّ اجتماع الأصدقاء، وأسرع «تختخ» يتصل بالمفتش «سامي»، ويطلب مقابلته في صباح اليوم التالي.

عندما استقبل المفتش «سامي» الولد المتشرِّد الذي دخل مكتبه في الصباح لم يُصدِّق أنه «تختخ»؛ كان يلبس ثيابًا ممزَّقة، وحذاءً قديمًا، وقد اتسخ وجهه ويداه، ولولا أن المفتش يعرف إجادة «تختخ» للتنكُّر لما صدَّق أن هذا الولد المتشرِّد هو صديقه المغامر.

وجلس «تختخ» يروي للمفتِّش قصة الحقيبة السوداء، حتى وصل إلى الجزء الأخير منها، وهو طلبه دخول الملجأ. قال المفتش: هذا شيءٌ غير معقول. إنك لن تستطيع تحمُّل الحياة داخل الملجأ، فهي حياة شاقة …

قال «تختخ»: إنني أعرف ذلك، ولكني أُحب أن أُجرِّب شيئًا جديدًا …

المفتش: ولكن ماذا تنتظر من هذه المغامرة؟ إن حقيبة والد «عاطف» يبحث عنها رجال الشرطة، وسوف يجدونها، فما الداعي لأن تُغامر هذه المغامرة الخطرة؟!

تختخ: إنني أتوقع أن تكون الحقيبة بدايةً للغزٍ هام … وليس أمامي طريقٌ آخر للوصول إلى حل هذا اللغز إلَّا بدخولي الملجأ.

المفتش: وهل اتفقت مع والدَيك على هذا؟ …

تختخ: لحسن الحظ أنهما انتهزا فرصة إجازة نصف السنة وسافرا إلى أسوان لقضاء الإجازة هناك، وليس هناك أحد في البيت سوى الشغَّالة …

فكَّر المفتش قليلًا، ولكن أمام إلحاح «تختخ» لم يجد وسيلةً إلَّا أن رفع سماعة التليفون، وأجرى اتصالات مع رجاله، وبعد قليلٍ كان كل شيءٍ جاهزًا؛ فسوف يقوم أحد رجال الشرطة بالقبض على «تختخ» وتسليمه إلى الملجأ بتهمة التشرُّد.

وتبادل المفتش و«تختخ» تحيةً حارة، واتفقا على طريقة اتصال أحدهما بالآخر، ثم مشى «تختخ» إلى خارج الغرفة، فوجد شرطيًّا في انتظاره، ولم يكن الشرطي يعرف شيئًا عن حقيقة الولد الذي أمامه، كل ما كان يعرفه أنه ولد متشرِّد مطلوبٌ إيداعه ملجأ الأحداث في السيدة. وهكذا أمسكه من ذراعه واقتاده إلى سيارة الشرطة التي كثيرًا ما رآها «تختخ» تحمل اللصوص والمشرَّدين لإيداعهم السجن أو الحبس في أقسام الشرطة المختلفة …

جلس «تختخ» في الجزء الخلفي المكشوف من السيارة مع مجموعةٍ مختلفة الأشكال من اللصوص والمشرَّدين، الذين أخذوا ينظرون إليه بعيونٍ فاحصة، وهو يُحاول القيام بدوره كولدٍ متشرِّد …

ظلَّت السيارة واقفةً أمام مبنى الشرطة فترةً طويلة، وبين حينٍ وآخر ينضم إلى الموجودين عددٌ آخر من المقبوض عليهم، حتى ضاقت السيارة بمن فيها، وأحسَّ «تختخ» أنه تورَّط في مشكلةٍ مخيفة، خاصةً وقد أخذت المشاجرات على الأماكن تتزايد، ووجد نفسه يتلقَّى عدة لطمات، برغم أنه لم يشترك في أيٍّ منها …

أخيرًا تحرَّكت السيارة، وشعر «تختخ» برغبةٍ قويةٍ في أن يقفز من السيارة إلى الشارع، وينهي هذه المغامرة، ولكن ذلك كان شيئًا مستحيلًا؛ فسوف يُطارده رجال الشرطة وتصبح مشكلة.

كان الملجأ هو آخر المطاف بالنسبة لرحلة السيارة، ولم يعد فيها سوى «تختخ» وولد آخر صغير نحيف، فتعارفا وقدَّم «تختخ» نفسه للولد باسم «دنجل»، أمَّا الولد فكان اسمه «مستور».

نزل الشرطي الذي تسلَّم «تختخ»، ونادى الولدَين فنزلا، واقتادهما إلى باب الملجأ ...

وعندما وقفوا أمام مبنى الملجأ الأصفر دقَّ الشرطي جرس الباب، ففُتح بعد فترة، وشعر «تختخ» وهو يخطو إلى داخله أنه يخطو إلى عالمٍ مجهول، وأحسَّ برِعدةٍ تسري في جسده. والشرطي يُغادر المكان بعد أن سلَّمهما إلى مدير الملجأ الذي بدأ يكتب البيانات الخاصة بهما في سجلٍّ خاص، ثم قال لأحد الفرَّاشين: عنبر ثلاثة ...

عالم جديد

سار الفرَّاش أمام «تختخ» و«مستور» في ممرَّاتٍ واسعةٍ باردة، على جانبَيها عنابر النوم، حيث ينام نُزلاء الملجأ. وكانت الساعة تجاوزت التاسعة مساءً و«تختخ» يشعر بالبرد والجوع معًا، فلم يكن قد تناول بعدُ طعام الغداء …

أخيرًا وصلا إلى العنبر رقم ٣، وفتح الفرَّاش بابه، ثم قال لهما: هناك فِرَاشان في آخر العنبر بجوار النافذة، كلٌّ منكما يختار واحدًا، وغدًا صباحًا ستتسلَّمان ملابس الملجأ …

ثم أغلق الباب، ووجد «تختخ» نفسه في غرفةٍ طويلة «عنبر»، وُضعت على جانبَيها أَسِرَّة الأولاد في صفَّين … وكان بعض الأولاد قد ناموا، وكان البعض الآخر ما زال مستيقظًا، وهؤلاء جلسوا في أماكنهم يرقبون القادمين في فضولٍ وحذر …

أخذ «تختخ» يتأمَّل ما حوله وهو يسير إلى فِراشه البعيد في طرف العنبر، و«مستور» يمشي خلفه، حتى وصلا إلى نهاية العنبر … وفجأةً انطفأ النور، وشمل العنبرَ ظلامٌ دامس، وكاد «تختخ» يصطدم بأحد الأَسِرة لولا أنه توقَّف عن السير في الوقت المناسب، أمَّا «مستور» فقد اصطدم فعلًا بالسرير الذي أمامه، وسمع «تختخ» صوتًا يقول: ألا ترى ما أمامك أيها الأعمى؟! …

لم يردَّ «مستور»، ولكن «تختخ» ردَّ على المتحدِّث قائلًا: ليس الخطأ منه، ولكن من النور …

قال المتحدِّث في الظلام: هل أنت الذي اصطدمت بسريري؟

تختخ: لا … ولكنه زميلي «مستور» …

المتحدِّث: وما دخلك أنت في الحديث، ما دام هو المسئول؟

وسمع «تختخ» ضحكاتٍ في الظلام، ثم سمع صوت المتحدِّث يقول: أضئ النور «يا كفتة» …

وأُضيء النور على الفور، فغشيت عينا «تختخ» لحظات، ثم رأى المتحدِّث يجلس في فراشه ... كان ولدًا قوي الجسم، منكوش الشعر، تبدو على وجهه علامات الشراسة والاعتداد بالنفس ...

قال الولد: من أنتما؟ ...

لم يردَّ «مستور» ... فقال «تختخ»: اسمي «دنجل»، وهذا «مستور».

الولد: هل أنتما من حارةٍ واحدة؟

تختخ: لا، لقد تعارفنا في سيارة الشرطة ...

الولد: هل أنت معلمه، أو محاميه؟ ...

تختخ: لست معلمًا ولا محاميًا، أنا صديقه فقط.

كان بعض الأولاد قد تركوا أماكنهم، واجتمعوا حول القادمَين الجديدَين، وسمع أحدهم يقول لآخر: إن «الكنجة» سيضربه ...

وأدرك «تختخ» أن «الكنجة» هو الولد المتحدِّث، وأن اسمه مأخوذٌ من كلمة «كنج» الإنجليزية، ومعناها «الملك» ... فهذا الولد هو ملك الملجأ، أو زعيم الملجأ، وعرف أن «الكنجة» سيُحاول ضربه، أو على الأقل السخرية منه؛ حتى يُثبت للباقين أنه الزعيم أيضًا بالنسبة للقادمَين الجديدَين.

قرَّر «تختخ» أن يتجنَّب الصدام بـ «كنجة» هذه الليلة؛ لأنه متعبٌ وجائع، فتحرَّك إلى الأمام ليذهب إلى فراشه، ولكن الأولاد المتفرِّجين وقفوا في شبه دائرةٍ تُحيط به، ومنعوه من التحرُّك ...

قال «الكنجة»: إلى أين أنت ذاهب؟ ... إنني لم أنتهِ من الحديث معك ...

تختخ: سأذهب لأنام فإنني متعب ...

الكنجة: لن تنام حتى أسمح لك؛ فهنا نظام وليست فوضى ...

سكت «تختخ»، فتقدَّم «الكنجة» من «مستور» وأمسكه من ذراعه في خشونة وقال: أنت مقبوضٌ عليك بتهمة إيه؟ ...

مستور: إنني لم أرتكب أية جريمة ...

ضحك «الكنجة» وقال: هل قبضوا عليك إعجابًا بك، أم لمجرَّد الهزار؟ ...

لم يردَّ «مستور»، فاتجه «الكنجة» إلى «تختخ»، وبدا أنه يتحفَّز لمضايقته، واستعد «تختخ»، ولكن حدث في تلك اللحظة ما غيَّر مجرى الأحداث؛ فقد فتح أحد المشرفين الباب وصاح: ألم تناموا بعد؟! ... هيَّا كلٌّ إلى فراشه ...

أسرع الأولاد كلٌّ إلى مكانه، أمَّا «الكنجة» فسار ببطءٍ وجلس على حافة فراشه في تحدٍّ، وانتهز «تختخ» الفرصة واتجه إلى فراشه، وكذلك فعل «مستور» …

أطفئ النور وساد العنبرَ الظلام …

استلقى «تختخ» على فراشه، وسحب البطَّانية، وتغطَّى بها وهو يرجو ألا يتحرَّك «الكنجة» مرةً أخرى في تلك الليلة … ولحسن الحظ مضى الوقت دون أن يحدث جديد، واستطاع بالرغم من الجوع والبرد أن ينام …

استيقظ «تختخ» صباحًا على صوت جرسٍ قوي، ففتح عينَيه، وللوهلة الأولى لم يدرك أين هو؛ فقد كان يظن أنه في البيت … ولكن سرعان ما أدرك الحقيقة، وأنه الآن في عالمٍ آخر — في ملجأ الأحداث — وسمع صوت المشرف يصيح: هيا كل واحدٍ يُنسِّق فراشه … ويغتسل ويتجه إلى الطابور.

قفز «تختخ» مسرعًا، وأخذ يُرتِّب فراشه كما يفعل الباقون، ثم اتجه إلى دورة المياه ليغتسل، واقترب «مستور» منه وهو يقول: صباح الخير. ردَّ تحية الصباح، ثم اتجها معًا إلى دورة المياه، وخرجا معًا إلى فناء الملجأ، حيث وقف الأولاد صفوفًا، وبعد تحية العلم ونشيد الصباح دخلوا إلى عنابر الأكل …

كان «تختخ» جائعًا فانقضَّ على الإفطار المكوَّن من الفول والعيش يلتهمه، وشرب كوبًا من الشاي، وأحسَّ بنشاطه يعود، وباستعداده للصراع يتزايد.

استدعاه المشرف هو و«مستور»، حيث تسلَّما ملابس الملجأ، وطلب منهما المشرف أن يختارا مهنة يتعلَّمانها، ولمَّا كان «تختخ» يهوى النجارة فقد اختارها، وكذلك فعل «مستور».

اتجها إلى الورشة معًا، وكانت مفاجأة «تختخ» أن يجد «الكنجة» هناك! كان يجلس في الشمس هو و«كفتة» بينما بقية الأولاد يعملون.

أخذ «تختخ» ينظر حوله باحثًا عن الولد الذي جاء من أجله، «عودة» ماسح الأحذية الصغير الذي حذَّره من التدخُّل في الموضوع بالنسبة للحقيبة السوداء، ولكنه لم يعثر له على أثر، وقال في نفسه: لعله في قسم الجلود باعتباره ماسح أحذية …

انهمك «تختخ» في عمله الجديد باهتمام، وكان يُساعده «مستور»، وبعد فترة خرج المشرف من عندهم … وبعد لحظات دخل «الكنجة» وخلفه «كفتة»، واتجه رأسًا إلى «تختخ» الذي تظاهر بأنه لا يراه، ولكن «الكنجة» مدَّ يده وجذب «تختخ» من كتفه قائلًا: أُريد أن أتحدَّث إليك.

توقَّف كل الأولاد عن العمل، ووقفوا ينتظرون ماذا سيحدث، وشعر «تختخ» أن «الكنجة» يُريد أن يُؤكِّد زعامته بإيذائه، وقرَّر أن يتحدَّاه. قال «الكنجة»: لماذا اخترت قسم النجارة؟ هل تقصد معاندتي؟

تختخ: ولماذا أُعاندك؟ …

الكنجة: لأنه لا أحد يدخل هذا القسم إلَّا بموافقتي.

تختخ: لم أكن أعرف هذا … ولو كنتُ أعرفه لما استأذنتك …

ابتسم «الكنجة» ابتسامةً خبيثة، وقال: أنت تتحدَّاني إذن؟

تختخ: إذا كنت تعتبر هذا تحديًا لك، فاعتبره كذلك …

وفجأةً طارت قبضة «الكنجة» في الهواء، واستقرَّت على وجه «تختخ» الذي أحسَّ بعنف الضربة، ولكنه لم يقع، بل أرسل قبضته هو الآخر كالقنبلة في وجه «الكنجة» الذي أسرع يُحاول ضرب «تختخ» بالرأس، ولكن «تختخ» كان قد أخذ حذره فانحرف يسارًا، فاندفع «الكنجة» إلى الأمام كالثور، ووقع على الأرض، ولكنه قام مسرعًا وهو يرتجف بالغضب، ومرةً أخرى هاجم «تختخ» بشراسة، ولكن «تختخ» كان مستعدًّا فضربه مرةً أخرى في بطنه … والتحم الولدان في صراعٍ مخيف، كان «الكنجة» قويًّا حقًّا، ولكن «تختخ» الذي كان يُجيد فنون الملاكمة والمصارعة كان ندًّا له … ووقف الأولاد يُحيطون بالمتصارعَين وهم يصيحون، وأسرع «كفتة» يُغلق باب الورشة حتى لا يدخل أحد …

استمرَّ الصراع بين الولدَين، ووقعا على الأرض بضع مرات، وكان «تختخ» يعرف أن هذه المعركة مهمة لإنقاذ كرامته من إذلال «الكنجة»، وهكذا صارع باستبسالٍ حتى استطاع في النهاية أن يُسقط «الكنجة» على الأرض لا حول له ولا قوة.

انسحب «الكنجة» خارجًا يتبعه «كفتة»، وأحاط الأولاد بـ «تختخ» يُهنِّئونه على نتيجة المعركة، وكان أكثرهم سعادةً «مستور»، الذي أحسَّ أن صديقه الجديد يمكن أن يحميه من بطش «الكنجة» ومن معه.

وعلى مائدة الغداء في العنبر الكبير انتشر خبر المعركة بين «تختخ» و«الكنجة»، وأخذ الأولاد يتناقلون خبرها بعد أن أضافوا إليها مبالغاتٍ كثيرة. وهكذا أصبح «تختخ» أو «دنجل» — وهو الاسم الذي يعرفه به الأولاد — بطلًا، وكان «مستور» أكثر الأولاد تحمُّسًا، أمَّا «تختخ» فلم يكن ما حدث يعنيه في شيء، إن ما يُهمه هو مقابلة «عودة» …

وهكذا أنهى «تختخ» غداءه مسرعًا، وقام يلف بين الصفوف باحثًا عن «عودة»، وكانت لحظةً عظيمةً عندما رآه يجلس على إحدى الموائد يتغدَّى! واقترب «تختخ» ليتأكَّد،

وأحسَّ بسعادةٍ بالغة عندما تأكَّد أن «عودة» ماسح الأحذية الصغير هو الولد الجالس إلى مائدة الطعام ... وفكَّر أن يتقدَّم ويُحدِّثه، ولكنه فضَّل أن ينتظر حتى يجد وسيلةً مناسبةً للحديث إليه، والحصول منه على المعلومات التي يُريدها.

بعد الغداء، وفي الشمس اجتمع الأولاد في حلقاتٍ يتحدَّثون، وكان «الكنجة» قد جمع أعوانه حوله، وأخذ يُبرِّر هزيمته بأنه كان مريضًا في الصباح، وأنه سوف يضرب «تختخ» في أقرب فرصةٍ ممكنة.

أمَّا «تختخ» الذي أحاط به عددٌ كبير من الأولاد، فقد كان يستمع في دهشةٍ إلى حديثهم عن «الكنجة». لقد كانوا جميعًا يخافونه ويرتعدون لمجرَّد ذكر اسمه ... لقد كان هو وأعوانه يُسيطرون على أولاد الملجأ جميعًا، ولا يستطيع أحدٌ أن يرد له أمرًا، وفجأةً انضم إلى الأولاد الواقفين «عودة» ...

كانت فرصةً طيبةً لكي يتحدَّث «تختخ» إليه، فناداه باسمه فتقدَّم «عودة» إليه مسرورًا؛ لأنه يعرف اسمه، فقال له «تختخ»: أليس لك أنت أيضًا ذكريات عن «الكنجة»؟!

قال «عودة»: إنني أعرفه أكثر ممَّا يعرفه أي ولدٍ آخر هنا؛ فقد دخلتُ هذا الملجأ ثلاث مرات، وفي كل مرةٍ كنتُ أجده هنا، حتى إنني أظن أنه لا يُغادر الملجأ أبدًا، ولكن الحقيقة ...

توقَّف «عودة» عن الكلام فجأة، كأنه أحسَّ أنه قال أكثر من اللازم عن «الكنجة» ...

قال «تختخ»: ولكن الحقيقة ... ماذا؟

قال «عودة» وهو ينسحب في خوف: لا شيء ... لا شيء مطلقًا.

لم يلحَّ «تختخ» في الحديث؛ فقد أدرك أنه لن يُكمل حديثه الآن، وتركه إلى فرصةٍ يمكنه أن يحصل منه على المعلومات التي يُريدها، والتي أحسَّ أن لها علاقةً قويةً بالزعيم أو الملك «الكنجة».

ذو الوجهين

لاحظ «تختخ» خلال الأيام القليلة التالية أن «عودة» يتودَّد إليه ويُحاول أن يُصبح صديقه، وقد سُر «تختخ» من هذا التقارب الذي تم بينهما، ولكنه شعر أن هذا التودُّد له هدفٌ آخر أكثر من الصداقة. وفي نفس الوقت بدأ «الكنجة» يُحاول جمع أنصاره من جديد، وتوقَّع «تختخ» أنه يُحاول «الكنجة» أن يُثير معه المشاحنات مرةً أخرى ...

وذات يومٍ في فسحةٍ ما بعد الغداء، كان «تختخ» يجلس ومعه «عودة» في الشمس الدافئة، وكان «تختخ» يُفكِّر في طريقةٍ يحصل بها على المعلومات من «عودة»، وهي المعلومات التي جاء من أجلها إلى هذا المكان.

وفجأةً نظر «عودة» إلى «تختخ»، وقال له بصوتٍ هامسٍ وهو يتلفَّت حوله: إنني أعرفك وأُريد مساعدتك.

تختخ: تعرفني؟! ...

عودة: نعم أعرفك، إنك «توفيق» ابن الأستاذ «خليل»، وشهرتك «تختخ». لقد كانت خالتي تعمل عندكم منذ عامَين، وكنت أحضر أحيانًا معها، ولكنك لم ترَني، أو لعلك رأيتني ونسيت.

كانت معلومات «عودة» عن «تختخ» دقيقةً وكاملةً إلى حدٍّ أذهل «تختخ»، ولكنه استعاد رباطة جأشه؛ فقد وجد الفرصة سانحةً للحصول على المعلومات المطلوبة، فقال بسرعة: وهل عرفتني عندما تحدَّثت معك في المقهى؟ ...

عودة: طبعًا، لهذا حذَّرتك من مغامرة الحقيبة السوداء، فأنا أسمع عن مغامراتك، وقد خشيت أن تدخل في صراعٍ مع خاطفي الحقيبة، وأنت لست مثلهم، إنهم أشرار ... أشرار ... ومجرمون ...

تختخ: ومن أين عرفتَ كل هذا؟ ...

عودة: قبل أن أقول لك كل شيء أُحذِّرك مرةً أخرى منهم ... كذلك أُحب أن تعرف أن «الكنجة» هو الذي أرسلني لمصاحبتك وإنشاء صداقة معك. إنه ولد ذكي وقد شك فيك؛ فشكلك وأسلوبك في الكلام لا يناسب نزلاء الملاجئ، وقد طلب مني أن أتجسَّس عليك.

أُصيب «تختخ» بذهولٍ تامٍّ وهو يسمع هذه الحقائق المدهشة عن «عودة»، وعن «الكنجة»، وأدرك أنه كان ساذجًا إذ تصوَّر أن دخوله إلى الملجأ لن يُثير شك أحد ...

عاد «عودة» إلى الحديث مرةً أخرى قائلًا بصوته الهامس: إنني أُحذِّرك مرةً أخرى، وأنصحك أن تخرج فورًا من هذا المكان؛ فإن «الكنجة» لن يتركك. ولا أقصد بهذا أن يضربك، ولكن شيئًا أكثر من هذا بكثير.

قال «تختخ»: إنني أشكرك على تحذيريك، ولكن أطلب منك أن تقول لي الحقيقة كاملة ... أُريد أن أعرف من الذي خطف الحقيبة ولماذا؟ وما دخل «الكنجة» في كل هذا؟

ردَّ «عودة» بصوتٍ مرتجف: إنني خائف منهم ... أنت لا تعرفهم أمَّا أنا فأعرفهم، وكنت واحدًا منهم ...

تختخ: لا تخف. إننا نعمل من أجل العدالة، ومن خلفنا رجال أقوياء يحموننا ...

فكَّر «عودة» قليلًا، ثم قال: أخشى أن يشكوا في حديثنا الطويل، ومن الأفضل أن أنصرف الآن ... وأراك غدًا ... في نفس المكان، وفي نفس الموعد.

وانصرف «عودة» وبقي «تختخ» وحيدًا يُفكِّر فيما سمعه، وأدرك أنه وقع على أثرٍ هام لللذين خطفا الحقيبة، وما وراءهما ووراء «الكنجة» من أشخاص.

ولاحظ «تختخ» في أثناء بقية النهار والمساء أن «الكنجة» كان يتحدَّث مع «عودة» كثيرًا، وأنه كان يرمقه بنظراتٍ حادةٍ ومتحدية. وأحسَّ «تختخ» بشيءٍ من الخوف؛ فقد يكون «عودة» خائنًا، وذا وجهين، وقد يُبلغ «الكنجة» بحقيقة «تختخ»، فيتعرَّض لمشاكل رهيبة لا يدري أحد مداها، ولكنه لم يُظهر هذا الخوف الذي أحسَّ به، وظل طول الفترة يضحك مع الأولاد ... ويتبادل معهم النِّكات، وكأن شيئًا لا يعنيه ...

وعندما جاء موعد النوم ... ذهب كل ولدٍ إلى فراشه عدا «الكنجة»، الذي سهر مع «كفتة» وولدَين آخرَين يتبادلون أحاديث هامسة، ونام «تختخ» وهم ما زالوا يتحدَّثون.

بعد منتصف الليل استيقظ «تختخ» على يد تهزُّه، وصوت خافت يُناديه، وفتح عينَيه ونظر حوله في الظلام، وسمع صوت «عودة» يقول هامسًا: «تختخ» ... «تختخ» ... استيقظ إنني «عودة» ...

حاول «تختخ» القيام من فراشه، ولكن «عودة» أشار له بأن يتظاهر بأنه ما زال نائمًا، ولاحظ «تختخ» أن «عودة» كان يجلس على الأرض حتى لا يراه أحد، وسمعه يتحدَّث إليه قائلًا: لقد فضَّلت أن أتحدَّث إليك؛ لأن «الكنجة» غادر الملجأ الليلة ...

قال «تختخ» بصوتٍ هامس: خرج! كيف؟ وهل سيعود؟ ...

عودة: إنه متفق مع البواب، ويستطيع هو وبعض أعوانه الخروج في أي وقتٍ ليلًا على أن يعودوا قبل طلوع الصبح، لقد كنت أعمل معهم فترةً طويلة، وأعرف كل شيء.

تختخ: وماذا يفعلون في الليل؟

عودة: إن العصابة تستخدمهم في أعمالٍ كثيرة ...

تختخ: أي عصابة؟ ...

سكت «عودة» لحظات، ثم قال: إنني أخشى من رجال العصابة عليك؛ ف «الكنجة» كما قلتُ لك يشك فيك، وقد حاولتُ أن أُبعد شبهاته عنك، ولكني لم أنجح، وأخشى أن تُدبِّر لك العصابة مؤامرة ...

عاد «تختخ» يسأل: أي عصابةٍ التي تتحدَّث عنها؟ لا يُهمك ما سيحدث لي، ولكن المهم أن تُخبرني عن العصابة.

عودة: إنها عصابة لتزييف النقود، يرأسها زعيم قوي لم أرَه أبدًا، ولكنني سمعت عنه. وله أعوان أقوياء، وهم يستعينون بعددٍ من الأولاد في مهماتٍ خاصةٍ لنقل الأشياء من مكانٍ إلى آخر، مثل الكليشيهات التي يطبعون النقود بها، والورق الذي يطبعون عليه. وأحيانًا يقومون بنقل النقود المزيَّفة إلى عملاء العصابة ...

وقفزت إلى ذهن «تختخ» حقيقة الحقيقة السوداء ... لقد سُرقت من أصحابها ولم يُبلِّغوا عنها؛ لأنها كانت ممتلئةً بالنقود المزيَّفة. ولكن لماذا سُرقت؟ وقال «تختخ» يسأل «عودة»: هل كان للعصابة دخل في سرقة الحقيبة السوداء؟

عودة: نعم ... إن هذه الحقيبة كانت ممتلئةً بالنقود المزيَّفة، وقد حاول رجلان من العصابة الفرار بها من الزعيم، ولكن أحد الأولاد الذين يعملون مع العصابة استطاع أن يتبعها ويسرقها من الرجلَين في المقهى ويُرجعها إلى العصابة ... وقد أخبرني الولد بكل شيءٍ عندما كان يتبعهما إلى المقهى، وقد شاهدته وهو يخطفها ...

تختخ: وهل تعرف مكان العصابة؟

عودة: لا، لا أحد يعرفها من الأولاد سوى «الكنجة»؛ لأنه موضع ثقة الزعيم.

وقبل أن يسأل «تختخ» أي سؤالٍ آخر تحرَّك أحد الأولاد في فراشه، فأسرع «عودة» إلى مكانه، واستلقى «تختخ» وقد امتلأ رأسه بالخواطر التي ظل يُفكِّر فيها حتى سمع

صوت أقدام «الكنجة» وهو يتسلَّل عائدًا من رحلته الليلية، ويُسرع إلى فراشه دون أن يراه أحد …

وفي صباح اليوم التالي كان كل شيءٍ يسير كالمعتاد، والتقى «تختخ» «بعودة»، وكان مهتمًّا بأن يسمع منه معلوماتٍ أخرى عن العصابة، ولكن «عودة» لم يكن لديه الكثير ليقوله … لقد اشترك مع العصابة فترة، ثم تركهم وغادر الملجأ، وكانت مهمته توصيل بعض الأشياء لأفراد العصابة في أماكن متفرِّقة، أو التردُّد على المقاهي التي يذهب إليها بعض أعوان العصابة، حيث ينقل لهم المعلومات وهو يقوم بمسح أحذيتهم …

قال «تختخ» لـ «عودة»: إن ما يُهمني هو أن أعرف متى يخرج «الكنجة» مرةً أخرى ليلًا؛ فإنني أُريد أن أتبعه لأعرف مقر العصابة …

قال «عودة»: من الصعب معرفة متى سيخرج «الكنجة»، ولكني سأحاول معرفة موعده في المرة القادمة …

وافترق الصديقان، وذهب «عودة» لينضم إلى فريق «الكنجة»؛ لعله يستمع إلى أنباء جديدةٍ عن العصابة …

مغامرة في الليل

قرب المساء كان «عودة» قد عرف موعد خروج «الكنجة»، وأسرع يُبلغ «تختخ»: سيخرج «الكنجة» ... الليلة مرةً أخرى، ومعه «كفتة». كن على حذر ...

وجاءت ساعة النوم و«تختخ» يُفكِّر كيف سيخرج. إنه لا يستطيع طبعًا أن يخرج من الباب؛ فالبواب سوف يمنعه، والحل الوحيد أن يقفز من على السور وقد يراه أحد ... ولكن لا بد من المغامرة، فهذه هي فرصته لمعرفة مقر العصابة ...

وهكذا أسرع «تختخ» إلى فراشه مبكِّرًا عن موعده وتظاهر بالنوم، ولكن من خلف طرف البطانية كان يرقب ما يدور في العنبر. وبعد أن هدأ كل شيءٍ رأى «الكنجة» يُغادر فراشه في هدوءٍ ويتبعه «كفتة»، ولاحظ أنهما يُغيِّران ملابسهما بملابس غير ملابس الملجأ موضوعة في كيسٍ تحت سرير «الكنجة». وكان مع «تختخ» ملابسه التي دخل بها، فهل يمكنه أن يُغيِّر ملابسه أيضًا؟ ولكن الوقت ضيِّق، ويجب أن يتبعهما ... وقرَّر أن يبقى بملابس الملجأ مع ما في ذلك من مخاطرة. ولم يكد الولدان يُغادران العنبر حتى قفز «تختخ» مسرعًا، ثم أسرع يُغادر العنبر خلفهما على أطراف أصابعه ...

اتجه الولدان إلى باب الفناء مباشرة، فأسرع «تختخ» إلى السور، وبمهارةٍ استطاع تسلُّقه، ثم نام على السور، وعيناه تُراقب الولدَين في الظلام. تحرَّك «الكنجة» و«كفتة» كأنهما شبحان، وكان «تختخ» خلفهما كشبحٍ ثالث، وكان طريق الملجأ مظلمًا، إلَّا من مصباحٍ صغير، فاستطاع «تختخ» أن يتبعهما عن قربٍ دون أن يُحسا بالمطاردة. وبعد فترةٍ أصبحا في ميدان «السيدة»، وكان عليه أن يُرقبهما من بعيد، حتى لا يرياه في الضوء القوي الذي يغمر الميدان ...

كانت الحركة في الميدان قوية ... السيارات ... والترام ... والناس ... ورائحة البخور والطعمية ... أشياء كثيرة افتقدها «تختخ» أثناء وجوده في الملجأ، وأحسَّ براحةٍ عميقةٍ وهو يرقب الحركة النشيطة في الميدان الكبير ... وكأنه كان في سجن وخرج إلى الحرية ...

اقترب «تختخ» منهما بقدر الإمكان، حتى يتمكَّن من الركوب خلفهما إذا اقتضى الأمر ...

مضت فترة والولدان واقفان، ومر ترام «٧» و«٤» و«١٦»، ثم جاء ترام «٣٠»، فأسرعا يقفزان إليه، ولحسن الحظ كان هذا الترام بعربتَين، فقفز «تختخ» إلى العربة الثانية، ووقف على السلم يُراقب العربة الأولى، التي ركب فيها «الكنجة» و«كفتة».

سار الترام في شارع «خيرت»، ثم انثنى إلى شارع «رشدي»، ثم شارع «عبد العزيز» دون أن ينزل الولدان ... ووقف الترام في «العتبة» فترةً طويلة، ثم مضى في طريقه إلى شارع «كلوت بك»، وقرب منتصف الشارع وقبل الوقوف في المحطة قفز الولدان، وأسرع «تختخ» يقفز خلفهما ... ثم يختفي وراء أحد أعمدة النور، حتى اجتاز الولدان الشارع، ووقفا قليلًا ينظران حولهما، ثم دخلا عمارةً قديمة، واختفيا داخلها. جرى «تختخ» عبر الشارع، ثم دخل إلى العمارة، ونظر في مدخلها، ولكن لم يكن هناك أثر للولدَين ...

وقف «تختخ» يُفكِّر لحظات فيما يفعل، ثم قرَّر أن يعرف أولًا رقم العمارة ليتذكَّرها فيما بعد ... إنها رقم «٣٢». ولم يكد يخرج حتى سمع صوت أقدام تنزل على سلم العمارة مسرعة. وقبل أن يختفي تمامًا رأى «الكنجة» و«كفتة» ينزلان، ويحمل كلٌّ منهما لفة. كان «تختخ» أمامهما تمامًا، فأسرع يُدير ظهره ويسير مسرعًا حتى لا يصطدم بهما ... ولكن كان يظن أنهما رأياه، خاصةً «كفتة» الذي كان ينظر أمامه مباشرة، حيث كان يقف «تختخ» ...

قال «تختخ» لنفسه: إذا كانا رأياني فسينهار كل شيء. يجب أن أختفي في أقرب مكان، ثم أنظر لعلني أرى أين يذهبان ...

كانت أول حارة قابلت «تختخ» إحدى الحارات العلوية التي تُشتهر بها الشوارع القديمة، فقفز السلالم مسرعًا ... ولكنه سمع صوت أقدامٍ خلفه ... هل كانا هما؟ لم يستطِع أن ينظر إلى الخلف؛ فقد يُواجهانه في هذا المكان المظلم المشهور بأوكار اللصوص والمتشرِّدين، لم يكن أمامه إلَّا أن يستمر بأقصى سرعة ... ووجد نفسه يدخل من زقاق ومن ظلامٍ إلى ظلام ... وشعر في النهاية أنه ضلَّل مطارديه، فوقف يسترد أنفاسه، ولم يكن هناك أي صوت ... ومع ذلك قرَّر ألَّا يعود من نفس الطريق، وتقدَّم سائرًا عبر الأزقة

المظلمة دون أن يدري إلى أين تقوده قدماه، وفجأةً سطعت أنوار بطارية في وجهه، وسمع رجلًا يقول: من أنت؟ …

سؤال لم يكن «تختخ» يستطيع الإجابة عنه فورًا … هل هو «تختخ» أم هو «دنجل»؟ وإذ كان هذا أو ذاك … ماذا يفعل في هذه الأزقة المظلمة وحيدًا؟! ودون أن يرد وجد نفسه يجري متجاوزًا السائل في سرعة. ويظل يجري وصوت الرجل يرتفع خلفه: «امسك حرامي.» وبدأ يسمع النوافذ والأبواب تُفتح … ولكنه لم يلتفت إلى شيء؛ فقد ظل يجري بكل قوته، وسمع في النهاية صوت سيارات وضجيج في شارعٍ قريب، فأخذ يتجه إليه … حتى وجد نفسه في شارع «نجيب الريحاني» … فهدَّأ من سرعته … وقفز في أول أوتوبيس قابله في ميدان «قنطرة الدكة» … ووجد نفسه بعد محطةٍ واحدةٍ في ميدان «رمسيس» …

قفز من الأوتوبيس، فوجد نفسه أمام محطة أوتوبيس «٤١٢»، وعلى الأوتوبيس لافتة «المعادي … رمسيس»، وأحسَّ برغبةٍ قويةٍ في أن يركب هذا الأوتوبيس، ويذهب إلى المعادي وينفض يده من هذه المغامرة كلها … وأخذ يقترب من الأوتوبيس كالمسحور … ولكن شيئًا فشيئًا تذكَّر المغامرة، واللغز الذي يجب حله … فاتجه إلى الترام، وقفز في رقم «٣٠» المتجه إلى «السيدة زينب» …

عاد مرةً أخرى إلى شارع الملجأ … ومن نفس المكان المظلم الذي قفز منه تسلَّق الحائط، ثم تدلَّى بهدوء ونزل في الفناء … وبخطواتٍ سريعة ولكن حذرة، اتجه إلى عنبر النوم وفتحه في حذر … ثم انسلَّ على أطراف أصابعه، واندسَّ في الفراش. لم يكد «تختخ» يلتقط أنفاسه ويهدأ، حتى سمع خطوات في الدهليز … والباب يُفتح … هل هو المشرف؟ لا … إنهما «الكنجة» و«كفتة»؛ فقد كانا يتحدَّثان في صوتٍ هامس … وأغلقا الباب خلفهما، ثم سمعهما يسيران … ولكن ليس إلى فراشَيهما؛ فقد تجاوزا كل الأسِرَّة … واقتربا من سريره … وسمع «الكنجة» يسأل «كفتة» بصوتٍ خافت: هل أنت متأكِّد أنكَ رأيتَه؟ …

وردَّ «كفتة» هامسًا: أعتقد أنه كان هو … لقد كان أمامنا عندما خرجنا من العمارة.

الكنجة: ولكنه في فراشه أمامنا! …

كفتة: لعله عاد قبلنا.

واقترب الولدان منه، وانحنى «الكنجة» عليه، ثم رفع البطانية من على وجهه، وتظاهر «تختخ» أنه يغط في نومٍ عميق، وأخذ يُصدر أصواتًا مختلطةً ممَّا تصدر عن النائم المستغرق في النوم، فقال «الكنجة» لـ «كفتة»: إنه نائم تمامًا … وليس من المعقول أن يكون قد خرج وذهب إلى شارع «كلوت بك» خلفنا … ورأيته أنت، ثم عاد بهذه السرعة.

قال «كفتة»: غدًا صباحًا نتأكَّد ... إنني أشعر أن هذا الولد ليس من رُوَّاد الملاجئ، وإذا كان قد كشف حقيقتنا؛ فإننا سنُواجه موقفًا صعبًا من الزعيم ...

عندما استيقظ «تختخ» في اليوم التالي تذكَّر كل ما حدث أمس، وأخذ يتصوَّر ما يمكن أن يحدث اليوم ... كيف سيتحرَّش به «كفتة» أو «الكنجة»؟ وهل سيدخل «الكنجة» معه معركةً أخرى بمفرده أو سيستعين بأعوانه؟ ... وماذا سيفعل إذا حدث كل هذا؟ إنه لا يستطيع أن يُصارع ستةً أو سبعة أولاد وحده مهما كانت قوته، فهل ينضم إليه في هذا الصراع الأولاد الذين تعرَّف عليهم خلال إقامته القصيرة في الملجأ؟ ... ظلَّت هذه الأسئلة وغيرها تدور في رأس «تختخ» حتى انتهى الغداء، وجاء لقاؤه اليومي مع «عودة»، فوقف «تختخ» ينتظر في الفناء ... بينما وقف «الكنجة» وحوله أعوانه وبينهم «كفتة» ينظرون إليه ... وبعد لحظاتٍ جاء «عودة» ... وبدلًا من أن يُخبره أن الأولاد يتآمرون عليه، فوجئ به يقول: إن «الكنجة» يُريد أن يصطلح معك؛ فهو يعتقد أنك ولد شجاع ... ويهمه أن تنضمَّ إلى مجموعته ... ما رأيك؟

ظن «تختخ» لأول وهلة أن «عودة» يضحك عليه ... فنظر إليه مبتسمًا، ثم قال: هل تقصد أنك سمعتهم يستعدُّون لضربي؟ ... إنني على استعداد ...

قال «عودة»: أُكلِّمك بمنتهى الجد. هذه رسالة من «الكنجة» إليك، فماذا ترى؟

فكَّر «تختخ» بسرعة ... إن «الكنجة» يشك في وجوده في شارع «كلوت بك» أمس، وهو يُحاول الآن مصادقته ليعرف الحقيقة ... وهو أيضًا يُريد أن يعرف عن «الكنجة» أكثر؛ فلا بأس من صداقة مؤقتة ... وهكذا قال لـ «عودة»: لا بأس، فإنني على كل حال لا أحب الشجار ...

وأسرع «عودة» يُبلغ «الكنجة» بموافقة «تختخ»، ورفع كلٌّ منهما يده من بعيد محييًا الآخر ... ثم اتجها للمصافحة بين دهشة أولاد الملجأ الذين وقفوا يرقبون ما يحدث، وقد ارتفعت أحاديثهم ... والتقى الغريمان في وسط الفناء، ووقفا يتحدَّثان معًا ... وكلٌّ منهما يُحاول أن يعرف ماذا يُخفي صاحبه.

في قلب الخطر

وضع «تختخ» خطته … كانت خطةً جريئةً قد يكسب بها كل شيء … وقد يخسر كل شيء؛ لقد قرَّر أن يعترف لـ «الكنجة» بأنه تبعه في شارع «كلوت بك» … لأنه يُريد أن ينضم إلى عصابة التزييف، فلم يعد هناك وقت للمناورات، والإجازة قاربت الانتهاء، وأهم من هذا كله أنه أصبح متأكِّدًا أن «الكنجة» و«كفتة» شاهداه أمس ليلًا، وأي إنكار لن يُجدي، ولكنه لن يقول له هذا الكلام مرةً واحدةً حتى لا يشك فيه «الكنجة». وهكذا عندما التقيا في المساء في صالة الألعاب … جلسا يتحدَّثان وحدهما، فقال «الكنجة»: إنني أُريد أن أسألك سؤالًا صريحًا …: هل كنت تتبعني أنا «وكفتة» أمس حتى شارع «كلوت بك»؟ …

قال «تختخ» بهدوءٍ وهو يبتسم: نعم … لقد تبعتكما أمس ليلًا.

فتح «الكنجة» فمه مندهشًا، وظل لحظاتٍ هكذا … ثم قال: وكيف عرفتَ أننا سنخرج؟ وكيف خرجتَ؟ ولماذا تبعتنا؟

عاود «تختخ» الابتسام قائلًا: هذه أسئلة كثيرة جدًّا، فلْنجب عليها واحدًا واحدا؛ أولًا: لم أكن أعرف أنكما ستخرجان … لقد كنتُ مستيقظًا عندما بدأتما تستعدَّان للخروج، فخرجت خلفكما … ثانيًا: عندما اقتربتما من الباب الخارجي، ورأيتُ البواب يستعد ليفتح لكما الباب، أسرعت إلى السور وقفزت منه، ثم ركبت خلفكما الترام …

الكنجة: إنك شديد البراعة … ولا بد أنك اشتركت في عصاباتٍ قوية …

أحسَّ «الكنجة» أنه تسرَّع في الحديث عن العصابات، فعاد يقول متعثِّرًا: لا أقصد عصابات سرقة … ولكن عصابات أولاد … أشياء بسيطة.

ردَّ «تختخ» دون أن يكذب في كلمةٍ واحدة: لقد اشتركتُ في مغامراتٍ كثيرة، وتتبُّع شخص في الشارع ليس مشكلةً بالنسبة لي، ومع ذلك أعتقد أنني فشلت؛ لأنكما استطعتما رؤيتي …

سكت «الكنجة» لحظات، ثم عاد يقول: ولكن لماذا تبعتنا؟

كان هذا هو السؤال الهام حقًّا، الذي يتوقَّف عليه مصير اللعبة كلها ... وهكذا اختار «تختخ» ألفاظه قبل أن يقول: لقد سمعتَ أنك مغامرٌ كبير ... وأن لك علاقات مع بعض الأشخاص الأقوياء ... الذين يكسبون كثيرًا ... وبصراحة فإنني أيضًا أُريد أن أكسب نقودًا ذات قيمة ... حتى أستطيع أن أخرج من هذا الملجأ، وأعيش حياةً طيبة ...

أعجبت عبارة مغامر كبير «الكنجة»، فهرش رأسه في تواضعٍ وهو يقول: لستُ مغامرًا كبيرًا جدًّا ...

تختخ: إن خروجك ليلًا وقيام البواب يفتح الباب لك، دليل على قوتك وذكائك، وأنا أُحب أن أنضم لك في مغامراتك ... وسترى أنني سأكون أحسن من «كفتة» وغيره من أصدقائك ...

ابتسم «الكنجة» في سعادة، فأدرك «تختخ» أن خطته تسير على ما يُرام، وانتظر أن يسمع إجابةً عاجلةً على طلبه بالانضمام إلى «الكنجة» في مغامراته، ولكن الولد عاد فجأةً إلى التجهُّم وقال: لا تعتبر أنني وافقت على كل ما قلت، ولكن سنتحدَّث مرةً أخرى صباحًا، ثم تركه وانصرف.

في تلك الليلة أحسَّ «تختخ» بأن «الكنجة» و«كفتة» يستعدَّان للخروج مرةً أخرى، وفعلًا لم تكد الساعة تتجاوز العاشرة ليلًا حتى انسل الولدان من العنبر وخرجا، وفي هذه المرة لم يقفز للَّحاق بهما ... لقد كانت خطته أن ينتظر تطوَّرات الحوادث. ولم تمضِ لحظات على خروجهما، حتى سمع الباب يفتح مرةً ثانية، وعلى الضوء الضعيف شاهد «الكنجة» يعود إلى العنبر ويقترب منه ... لقد كان يُريد أن يتأكَّد أن «تختخ» لم يتبعه هذه الليلة كالليلة السابقة ... وتظاهر «تختخ» بالنوم، ولكن «الكنجة» لم يصِل إلى الفراش ... لقد اكتفى بنظرةٍ من بعيد، ثم غادر المكان مسرعًا ...

نام «تختخ» نومًا عميقًا لأول مرة منذ دخل الملجأ، لقد وصل إلى معلوماتٍ مؤكَّدة، وعمَّا قريب يعرف كل شيءٍ عن العصابة، ويُبلغ المفتش «سامي» وينتهي الأمر ... ولكن ماذا حدث بالضبط في تلك الليلة؟

في الصباح التقى الصديقان الجديدان «الكنجة» ... و«دنجل» كما أطلق «تختخ» على نفسه، وقال «الكنجة» بعد أن حيَّا «تختخ»: ستخرج معي الليلة ... وسنقوم بمغامرةٍ تُعجبك، وستقبض مبلغًا محترمًا.

تظاهر «تختخ» بالسرور كطفلٍ نال جائزة، قال: أشكرك كثيرًا، وأرجو أن أكون عند حسن ظنك، ولكن ما هي المهمة بالضبط؟

الكنجة: ستعرف كل شيءٍ في الوقت المناسب ... وعليك فقط أن تستعد في العاشرة للخروج، وسأُعطيك إشارةً في الوقت المناسب.

أخذ «تختخ» يُفكِّر في الساعات القادمة، وقد أدرك أنه دخل مرحلةً خطرةً من المغامرة، مرحلة يلتقي فيها بالعصابة ولا يُدرك نتائجها ... وأخذ يُفكِّر فيما سيفعل هذه الليلة: أليس من الأفضل أن يُخطر المفتش «سامي»؟ ... ولكن لعل المغامرة كلها تفشل إذا أحسَّت العصابة بتدخُّل رجال الشرطة ... وخطرت في رأسه فكرة فنفَّذها على الفور ... ذهب إلى صديقه الصغير «مستور»، وجلس يتحدَّث معه ... قال له: اسمع يا «مستور»، سوف أُضطر الليلة إلى مغادرة الملجأ ... وأُريد أن أُكلِّفك بشيءٍ هام ... هل تقوم به؟

قال «مستور» في صدق: طبعًا ... ألسنا صديقَين؟

تختخ: شكرًا لك. سأُعطيك رقم تليفون ... فإذا لم تجدني غدًا صباحًا في العنبر ... عليك بالاتصال بهذا الرقم ... اطلب المفتش «سامي»، وقل له أن يذهب إلى العمارة رقم «٣٢» شارع «كلوت بك» ...

أحسَّ «مستور» بالخوف ممَّا يسمع، فقال: أتصل بالمفتش «سامي» مفتش المباحث الجنائية! ... لا أستطيع.

تختخ: لا تخَف إنه رجلٌ لطيف ... وسوف يسرُّه أن تتعاون معي.

مستور: هل أنت صديقه أو قريبه؟ ...

تختخ: لا داعي لهذه الأسئلة الآن ... وسوف أشرح لك كل شيءٍ إذا قابلتني مرةً أخرى.

مستور: وهل أذكر اسمك إذا سألني؟ ...

تختخ: طبعًا ... قل له رسالة من «دنجل» في الملجأ، وسوف يفهم كل شيء ...

عندما اقتربت الساعة من العاشرة، كان الأولاد جميعًا قد استغرقوا في نومٍ عميق، ولم يبقَ مستيقظًا سوى الثلاثة الذين كانوا سيخرجون في تلك الليلة؛ «الكنجة» و«كفتة» و«تختخ». ورأى «تختخ» الإشارة المتفق عليها، فغادر فراشه بهدوءٍ دون أن يُحدث أي صوت، ثم تبع «الكنجة» و«كفتة» عبر الممر المؤدي إلى الباب الخارجي. وكان «الكنجة» قد سبق «تختخ» و«كفتة»، حيث تحدَّث مع البواب قليلًا، ودسَّ في يده شيئًا؛ ففتح لهم الباب وهو يرمق «تختخ» بنظراتٍ حادة. ركب الثلاثة الترام من نفس المكان، وأخذ «الكنجة» يشرح لـ «تختخ» ما سيحدث، فقال: أولًا نحن لم نقل لأحد إنك تبعتنا في تلك الليلة ... فلو

علم الزعيم بهذا فسوف ينتقم منا ... إنه يستخدم أولاد الملجأ حتى لا يشك فيهم أحد ... فلن يتصوَّر رجال الشرطة أن الأولاد يخرجون ليلًا، ويعودون دون أن يُحس بهم أحد ... ولكن الزعيم متفق مع البواب ... ونحن ندفع له مبلغًا عن كل ليلة نخرج فيها ... وسوف نُقابل الآن المسئول عن التوزيع ... سيُعطيك شيئًا تُخفيه تحت ثيابك ... ثم تذهب إلى العنوان الذي سيُعطيه لك ... وبعد أن تُسلِّم ما تحمله تعود إلى الملجأ ... وسوف يفتح لك البواب الباب ...

وسكت «الكنجة» قليلًا، والترام يشق طريقه في الشوارع المضاءة، ثم قال: وعلى كل حال تظاهر بأنك لا تعرف طبيعة مهمتك، وسوف يشرح لك المسئول عن التوزيع كل شيء ... حتى لا يقال إنني أفشيت معلوماتٍ عن العصابة؛ فإن هذا يُعرِّضني لغضب الزعيم ...

قال «تختخ»: إنك تخاف هذا الزعيم جدًّا، هل هو قاسٍ إلى هذا الحد؟ ...

الكنجة: أكثر ممَّا تتصوَّر.

تختخ: وما هو شكله؟

الكنجة: شكله ... إن أحدًا لا يعرفه مطلقًا ... إلَّا عدد قليل جدًّا من رجاله، ولكني أعرف أن أحدًا لا يتصل به قبل العاشرة ليلًا، لا أدري لماذا؟ ...

سكت الاثنان، واستغرق «تختخ» في أفكاره ... ماذا سيحدث الليلة؟ وهل يقوم حقًّا بترويج نقودٍ زائفة؟! إن أفضل ما يمكن عمله أن يأخذ النقود، ويذهب إلى المفتش «سامي»، ويضع أمامه الحقائق كاملة ... هذا هو الحل الأفضل. وشعر بارتياح، وأخذ ينظر حوله في سعادة ... فقد اقتربت المغامرة من نهايتها، وقد يعود الليلة إلى «المعادي»، ويُعاود النوم في غرفته ... ثم يروي القصة كلها صباحًا للأصدقاء.

ووصل الترام إلى شارع «كلوت بك»، وقفز الثلاثة، ثم اتجهوا إلى نفس العمارة القديمة التي دخلها الولدان عندما تبعهما «تختخ»، ودخلوا وصعدوا إلى الدور الثاني ... ثم وقفوا أمام بابٍ مغلق ومظلمٍ تمامًا، ولا يتصوَّر أحد أن خلفه أحدًا ... ودقَّ «الكنجة» الجرس ثلاث دقَّات ... وبعد لحظاتٍ سُمع صوت في الداخل، ثم فتح شراعة الباب، وأطل منها وجه رجلٍ ضخم، ثم فتح الباب ... وكان الضوء في داخل الشقة شديدًا ... ولكن كانت هناك ستائر سوداء على الباب من الداخل تمنع تسرُّب الضوء.

دخل الثلاثة، وتبعوا الرجل الذي سار أمامهم صامتًا إلى حجرةٍ دقَّ بابها، وسمع «تختخ» صوتًا من الداخل يقول: «ادخل.» ودخل الرجل، ودخل الأولاد الثلاثة، وأغلق الرجل الباب ووقف بجواره، ونظر «تختخ» حوله ... كانت غرفةً فاخرة الأثاث ... في

طرفها مكتب كبير جلس إليه رجلٌ كان يفتح خزانةً بجانبه ويعد شيئًا ... وعندما التفت الرجل إليهم أحسَّ «تختخ» أن صاعقةً وقعت على رأسه ... فهذا الرجل يعرفه ... يعرفه جيدًا ... كلٌّ منهما يعرف الآخر برغم مرور فترةٍ طويلةٍ عندما التقيا أول مرة ... لم يكن الرجل الجالس على المكتب سوى «كمال» زعيم عصابة «الأشباح السوداء»، التي أوقعها «تختخ» في لغز الشبح الأسود.

ولم يكد «كمال» يرفع عينَيه وتقعان على «تختخ»، حتى وقف صارخًا: أنت!

وسكت كل من في الغرفة ... ولم يعد يُسمع إلَّا صوت الأنفاس المتسارعة خاصةً من «الكنجة»، الذي أحسَّ أنه ارتكب خطأً خطيرًا ...

لم يكن أمام «تختخ» فرصة للإنكار، فقال بهدوء: نعم ... إنه أنا.

قفز «كمال» من خلف المكتب قفزةً واحدة، وصاح: رجال الشرطة يُحاصرون المكان ... إن هذا الولد من أعوانهم ...

وانتفض الرجل الضخم الذي كان يقف خلف «تختخ» عليه، وأمسكه وشلَّ حركته، في حين فتح «كمال» الباب ونظر خارجه ... ولكن لم يكن هناك أحد.

قال «كمال» موجِّهًا حديثه إلى «الكنجة»: من هذا الذي أحضرتَه؟! هل تُريد أن توقع بنا كلنا؟!

ردَّ «الكنجة» بصوتٍ مرتجف: إنني لا أعرف عنه إلَّا أنه ولد من الملجأ، وأنت طلبت مني تجنيد عدد آخر من الأولاد لمهمة التوزيع، وقد رشَّحتُ «دنجل» للقيام بهذه المهمة.

والتفت «كمال» إلى «تختخ» قائلًا: واسمك «دنجل» أيضًا! ... هذا شيءٌ عظيم.

تختخ: هل يُعجبك الاسم؟

قال «كمال» في غيظ: هل تستظرف؟ ... إنك أوقعت بي مرة، واستطعت الهرب من السجن ... ولكنك لن توقع بي مرةً أخرى ... بل أنت الذي وقعت، وهذه فرصتي لأنتقم منك لِما فعلت بي ... إنك لن تخرج من هنا حيًّا. أدرك «تختخ» أنه وقع في مأزقٍ خطير، وأدار بصره في الغرفة لعله يجد منفذًا للهرب، ولكن النوافذ كانت مغلقةً بإحكام. ووقع بصره بجوار المكتب على ما كان سبب كل هذه المآزق، الحقيبة السوداء، وأدرك أنها لا بد أن تكون حقيبة والد «عاطف»، التي حاولت العصابة خطفها من «عاطف»، ثم سرقتها بعد ذلك من مكتب المحامي ... لقد عثر عليها ... ولكن في أي ظروف؟!

وأخرجه من خواطره «كمال» الذي أمسكه من كتفه وهزَّه قائلًا: هل يعلم رجال الشرطة بهذا المكان؟

تختخ: لا ...

عاود «كمال» هزَّ كتفه قائلًا: قُل الحقيقة وإلَّا ...

تختخ: هذه هي الحقيقة ... وإلَّا كان رجال الشرطة قد اقتحموا المكان الآن.

عاد «كمال» إلى مكتبه وجلس يُفكِّر، ثم قال: لن أنسى أنك خدعتني قبل الآن ... واستطعت أن تتغلَّب عليَّ ... ولكن هذه المرة لن أتركك تخدعني ... ثم وجَّه كلامه إلى «الكنجة» و«كفتة»: أمَّا أنتما فسوف أترككما للزعيم ليتصرَّف معكما ... ونظر «تختخ» إلى الولدَين فوجد وجهَيهما يشحبان، وأيديهما ترتجف، فأدرك أن لهذا الزعيم سطوةً مخيفةً على أعدائه.

أمسك «كمال» بالتليفون، وأخذ يُدير رقمًا ... وركَّز «تختخ» انتباهه على يده وهي تضرب الأرقام ... فلا بد أن «كمال» سيتصل بشخصٍ هام في العصابة ... لعله الزعيم ... واستطاع أن يلتقط الأرقام واحدًا واحدًا ... ٦ ... ٢ ... ٢ ... ٥ ... ٢ الرقم كله ٦٢٢٥٢. وأخذ يُركِّز ذهنه حتى لا ينساه ... فهذا الرقم له أهميته إذا قُدِّر له أن يخرج من هذا المكان حيًّا.

وظلَّ «كمال» يضع السماعة على أذنه فترة طويلة ... وأخيرًا بدأ يتحدَّث ... وأخذ يروي ما حدث في كلماتٍ متقطِّعة ... ويستمع ... ثم يُعاود الحديث ... ثم استمع فترةً طويلة، ووضع السماعة، ثم واجههم قائلًا: «الكنجة» و«كفتة» ... عُودا فورًا إلى الملجأ، وخُذا بقية الأولاد، واهربوا جميعًا، وسنتصل بكم فيما بعد.

أسرع الولدان إلى الخارج كأنهما لا يُصدِّقان أنهما نجيَا ... أمَّا «كمال» فأخذ يُصدِر تعليماته إلى الرجل الواقف الذي كان يُمسك بذراعَي «تختخ» بشدةٍ من الخلف، حتى كاد يكسرهما: عليك بشد وثاق هذا الولد حالًا ... ثم اجمع بقيَّة الرجال؛ فسوف نترك هذا المكان فورًا ... وهاتِ لي بعض الأوراق القديمة هنا في هذه الغرفة ...

وأسرع الرجل يُحضر حبلًا، ثم قيَّد يدَي «تختخ» خلفه، وربط منديلًا على فمه، ثم ألقاه على الأرض، وقيَّد قدمَيه، وفي هذه الأثناء كان «كمال» يملأ حقيبتَين كبيرتَين بأوراق النقد المزيَّفة ... وكانت هناك حركة لأقدامٍ كثيرةٍ في الصالة ... وفي خلال الساعة التالية، كان «كمال» قد أعدَّ كل شيء ... وقال لـ «تختخ» شامتًا: الآن أنتقم منك ... سوف أُشعل النار في هذه الغرفة لأشويك حيًّا، وهذه العمارة كلها تتبعنا، وليس فيها سُكَّان سوانا، فلن يُنقذك أحد ... حتى إذا استطاع أحدٌ أن يرى الدخان في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل، فلن يصل أحد لإنقاذك إلَّا بعد أن تكون قد اختنقت من الدخان ... أو احترقت بالنار.

أحسن «تختخ» بأن «كمال» لا بد أن يكون مجنونًا ... فليس من المعقول أن يُشعل النار في العمارة كلها ... ويُهدِّد حيًّا بأكمله بالاحتراق لمجرَّد أن يتخلَّص منه. وظل لحظاتٍ يظن أن «كمال» يضحك عليه ليبث في قلبه الرعب، ولكن الرجل الذي كان زعيمًا للأشباح السوداء، وأوقعه «تختخ» في يد الشرطة كانت رغبته في الانتقام، قد أعمته عن كل شيء ... وهكذا أخرج ولَّاعته ... وبلا أدنى تردُّد أشعل النار في كومة الأوراق التي أحضرها مساعده ... وبعد لحظاتٍ كان يُغلق الباب بالمفتاح على «تختخ»، ويُغادر المكان بعد أن أطفأ النور.

شاهد «تختخ» النار تُسرع بالتهام الأوراق الجافة ... والدخان يتزايد شيئًا فشيئًا في الغرفة ... وأدرك أنه في مأزقٍ من أشد المآزق التي مرَّ بها في حياته خطورة ... بل أدرك أن هذه هي النهاية ... فأخذ يُحاول فكَّ يدَيه، ولكن الرباط كان محكمًا فلم يستطِع أن يُحرِّكه ... وحول أن يفك قدمَيه، ولكن المحاولة الثانية لم تكن أنجح من الأولى ... ولكن تمكَّن من الوقوف على ركبتَيه بصعوبةٍ مستندًا على الحائط ... ثم استطاع أن يقف ...

كانت النيران قد أضاءت الغرفة ... وعلى ضوئها شاهد جهاز التليفون مكانه، وأحسَّ بالأمل يُعاوده ... فلو استطاع الاقتراب من التليفون لاتصل بالمطافئ ... أو بشرطة النجدة ... وأُبلغها ما حدث ... ولكن شيئًا هامًّا نسيه ... نسي أنه مكمَّم الفم لا يستطيع أن ينطق بكلمةٍ واحدة ... وبدأ الأمل يتلاشى، ويحل محلَّه يأْسٌ قاتل ... خاصةً وقد بدأ الدخان يملأ الغرفة، ويتسلَّل إلى رئتَيه فتضيق أنفاسه ... وإلى عينَيه فتلسعانه، وتنهمر منهما الدموع حتى لا يكاد يرى ما حوله ... ولكن بشجاعة اليائس أخذ يقترب من المكتب، وركع على ركبتَيه، ثم وضع فمه على طرف الزجاج المدبَّب محاوِلًا زحزحة المنديل قليلًا ... وفي كل مرةٍ كان يحك صدغه في الزجاج؛ كان يُحس بأنه يقطع جلده ... ولكنه لم يكن يشعر بالألم؛ فقد كانت حياته رهنًا بهذه المحاولة ... وقد عاوده الأمل عندما أبطأت النار في الانتشار بعد أن تحوَّلت الأوراق إلى رماد، وانتقلت النار إلى أرض الغرفة.

شيئًا فشيئًا بدأ المنديل يتحرَّك إلى أسفل ... وكلما تزحزح مسافةً كان الأمل في الحياة يُعاود «تختخ» ... وأخيرًا استطاع أن يُبعده عن فمه مسافةً صغيرةً جدًّا، ولكنها كافية لأن يتحدَّث. وهكذا اقترب من التليفون، واستدار وأسقط السماعة، ثم أخذ يتحسَّس القرص بأصابعه ... وقرَّر أن يُحاول طلب المفتش «سامي» فهذا أفضل؛ فقد بدأت قواه تخور ... والدخان يملأ رئتَيه ... والمجهود الذي يبذله يشل أعصابه ... إن المفتش «سامي» هو وحده الذي سيفهم، ولو قال له كلمةً واحدةً أو كلمتَين ...

استطاعت أصابعه أخيرًا أن تتحسَّس القرص، وأخذ يثني يدَيه بصعوبةٍ ليُدير الأرقام، وكان كل رقم يحتاج إلى حركاتٍ شاقة ... وبعد مجهودٍ عنيفٍ أكمل الرقم المطلوب، ثم

ألقى بنفسه على الأرض بجوار السمَّاعة، وأخذ يستمع وهو يقترب من الإغماء إلى صوت الجرس وهو يدق في الناحية الأخرى دقًّا طويلًا متواصلًا ... إنه منزل المفتش «سامي» فهل هو هناك؟ إن هذا هو الأمل الأخير.

مرَّت الثواني كأنها سنوات طويلة ... ثم سمع صوت المفتش الذي يُثقله النوم يقول: ألو ... ألو ... من هناك؟

وبصعوبةٍ بالغةٍ وكل شيءٍ يدور ... ومن خلال الفتحة الصغيرة في المنديل، استطاع «تختخ» أن يقول بضع كلمات ... أنا «تختخ» ... أسرع ... «٣٢» شارع «كلوت بك» ... وسمع صوت المفتش يصيح على الطرف الآخر: ألو ... ألو ... «تختخ» ... ماذا حدث؟!

ولكنه لم يكن يستطيع الرد ... فقد أُغمي عليه!

لغز الزعيم

عندما استيقظ «تختخ» في صباح اليوم التالي وجد نفسه في مكانٍ غريب ... اكتشف بعد لحظاتٍ أنه في مستشفًى ... وأنه محاطٌ بالأطباء ... ومعهم المفتش «سامي» ...

كان يشعر بإعياء، وبالالتهاب في عينَيه ... وصدره ... ولكنه كما قال لنفسه غير مصدق: ما زلت حيًّا! ...

وانحنى المفتش «سامي» عليه، واطمأن على حاله، ثم قال له معاتبًا: لن أسمح لك مرةً أخرى بالدخول في مغامراتٍ من أي نوع ... لقد وصلنا أمس والنار تكاد تلتهمك، ولولا سرعة رجال المطافئ وكفاءتهم لما استطعنا إنقاذك ...

تختخ: لم أكن أتوقَّع المفاجأة التي حدثت ... لقد كنتُ أتصوَّر أنني وصلت إلى حل لغز الحقيبة السوداء دون أن أتعرَّض لمخاطر ... ولكن في الوقت غير المناسب ظهر رجل لم أكن أتوقَّع ظهوره مطلقًا ... «كمال» ...

قال المفتش وهو يُحاول التذكُّر: «كمال» ... «كمال» ... إنني أذكر عشرات الأشخاص بهذا الاسم، فمن الذي تقصده؟

تختخ: «كمال»، زعيم عصابة الأشباح السوداء ... الذي قبضت عليه في المعادي متهمًا بالتهريب.

المفتش: تذكرتُ ... إنه هارب من السجن منذ ثلاثة أشهر ...

تختخ: ويعمل الآن في عصابة للتزييف ... هل قبضتم على أحد؟

المفتش: مطلقًا ... لم نجد أحدًا في العمارة كلها سواك ... إنها عمارة بها شركة التوكيلات العالمية ... وهي شركة في ظاهرها محترمة ...

تختخ: أبدًا، مجرَّد غطاء لعملية تزييف يشترك فيها عدد كبير من الرجال والأولاد ... ويتزعَّمها رجلٌ قوي لا أحد يعرفه ...

المفتش: من الأفضل أن تروي لي الحكاية كلها ... وسوف أُحضر بعض الضبَّاط ليستمعوا معي لنقوم بالعمل فورًا ...

وحضر الضبَّاط وأحاطوا بفراش «تختخ»، الذي أخذ يروي لهم قصة الحقيبة السوداء ... من أولها ... وكانت نظرات الإعجاب حينًا ... والإشفاق أحيانًا تلمع في وجوههم، وهم يستمعون إلى ما فعل «تختخ» خلال الأيام الماضية ...

وعندما انتهى من قصته بدأت الأسئلة تنهال عليه من كل جانب، ثم قال المفتش «سامي» معلِّقًا: ولكن هذا يعني أننا لن نصل إلى العصابة رغم هذه المغامرة ... فقد هرب الأولاد من الملجأ ... وسنأخذ وقتًا طويلًا للبحث عنهم ... وكذلك هرب «كمال»، ولن يعود أحدٌ منهم إلى العمارة التي بشارع «كلوت بك» ... ولم يبقَ أمامنا إلَّا البواب، وهو لا يعلم بالطبع شيئًا كثيرا ...

تختخ: بقي شيءٌ هام ... رقم التليفون الذي اتصل به «كمال» أثناء وجودي معه ... إنه رقم تليفون زعيم العصابة ... فقد كان يُحدِّثه باحترام، وكان يتلقَّى التعليمات منه ...

المفتش: ولكن كيف سنعرف الرقم؟

وأخذ «تختخ» يتذكَّر رقم التليفون ... ولكنه طار من ذاكرته ... وأخذ المفتش والضبَّاط ينظرون إليه في رجاءٍ لعله يتذكَّر ... إنه الأمل الباقي للوصول إلى العصابة ... ولكن عبثًا ... لقد نسيه تمامًا.

قال أحد الضبَّاط يُحدِّث المفتش: يبدو ألَّا فائدة ... ليس أمامنا إلَّا القبض على بوَّاب الملجأ ... لعله يعرف شيئًا ...

المفتش: إن العصابة لا تعلم شيئًا عمَّا حدث حتى الآن ... وهم يتصوَّرون أن «تختخ» قد احترق وانتهى الأمر ... والقبض على البوَّاب قد يُنبِّههم إلى أننا كشفنا أمرهم ... لنرجئ القبض على البوَّاب حتى آخر دقيقة ...

واستعدَّ المفتش والضبَّاط لمغادرة الغرفة ... ولكن «تختخ» قال: لا تتركوني وحدي ... سوف أخرج معكم ...

المفتش: ولكنك ما زلت متعبًا.

تختخ: ليس إلى درجةٍ كبيرة ... ولا بد أن أعود اليوم إلى «المعادي» ... فقد ضاع جزءٌ كبيرٌ من الإجازة، وعندي واجبات مدرسية ...

المفتش: إن ما يُعجبني فيك أنك مغامر جريء، وتلميذ مجد في نفس الوقت.

وبعد دقائق خرج الجميع إلى مكتب المفتش «سامي» ... وعندما وصلوا إلى هناك كانت هناك إشارة من قسم السيدة أن ستة أولادٍ قد هربوا من الملجأ ليلة أمس، فقال «تختخ»

معلنًا الحقيقة: إنهم خمسة فقط ... فأنا لم أهرب ... ولكن مهمتي هناك قد انتهت ... لقد انتهت بالفشل تقريبًا ... ولكن المفاجأة الأخيرة هي التي قلبت ترتيباتنا ...

المفتش: سأتصل بالملجأ لأعرف أوصاف هؤلاء الأولاد ... فسوف نبحث عنهم لعلهم يقودوننا إلى الزعيم، وإلى مخبأ العصابة ...

وأخرج المفتش أجندة التليفونات، وأخذ يبحث عن الرقم، ثم بدأ يُدير القرص ... وكان «تختخ» يُراقبه وهو يُدير القرص فصاح قائلًا: ... وجدتها ... وجدتها ...

توقَّف المفتش وسأل «تختخ» مندهشًا: ماذا وجدت؟! ما هي التي وجدتها؟! ...

تختخ: نمرة تليفون الزعيم ... إنها نفس نمرة تليفون الملجأ التي تُديرها ... ٦٢٢٥٢. لقد كان «كمال» يتصل بزعيم العصابة البوَّاب.

المفتش: غير معقول! ... إن بواب الملجأ هو زعيم العصابة!

تختخ: بل هو ... إنه أفضل مكان يُدير منه أعماله دون أن يشك فيه أحد، ويراقب تحرُّكات العصابة بواسطة الأولاد ... ويراهم في خروجهم ودخولهم، وهو الذي يرد على تليفونات الملجأ ليلًا عندما ينام الجميع ... لقد أخبرني «الكنجة» ألَّا أحد يستطيع أن يتصل بالزعيم قبل العاشرة ليلًا ... وهذا هو الموعد الذي يكون جميع موظفي الملجأ قد انصرفوا أو ناموا، ومبنى الإدارة بجوار البوابة ... ومن هذا المكان يُدير الرجل عصابته ...

قال المفتش: إذا كان هذا صحيحًا ... فهو زعيم ذكي حقًّا ... ولكنه سيقع الآن.

وأخذ المفتش يُجري اتصالاتٍ عاجلةً بالتليفون ... وعلم أن البوَّاب لا يأتي إلى الملجأ إلَّا في المساء ... وهكذا أُعدَّت سلسلة من الكمائن حول الملجأ حتى لا يستطيع الإفلات.

وفي المساء ... اتجهت سيارة تاكسي إلى الملجأ، تحمل «تختخ» والمفتش وبعض الضبَّاط بالملابس العادية ... وعندما وقفت أمام الملجأ وقف البوَّاب ليرى القادمين ويفتح لهم الباب ... وقبل أن يُدرك الحقيقة كان الضبَّاط قد أحاطوا به من كل جانب، وقال المفتش «سامي»: لا تتحرَّك يا حضرة الزعيم!

لم يُصدِّق الرجل نفسه ... وأخذ يتظاهر بأن هناك خطأ ... ولكنه انهار سريعًا أمام الحقائق، ولم يستطِع إلَّا الاعتراف ...

وفي مكتب المفتش «سامي» اعترف الزعيم بكل ما فعل، وبكل المعلومات اللازمة للقبض على بقية أفراد العصابة.

وأثنى المفتش على «تختخ» مهنِّئًا، ثم قال: لحسن الحظ أن حقيبة والد «عاطف» لم تمسَّها النار ...

ثم مدَّ يده تحت مكتبه وأخرج الحقيبة وسلَّمها إلى «تختخ» مبتسمًا قائلًا: سنحتفل بحل اللغز غدًا في الكازينو كالمعتاد.

وهنا خطر لـ «تختخ» سؤال توجَّه به إلى رئيس العصابة قائلًا: ولكن كيف وصلت هذه الحقيبة إليكم؟ لقد كانت مع عضوَي العصابة اللذين حاولا ترك العصابة.

قال الزعيم: لقد طاردناهما برجالنا، وأوقعنا بهما العقاب المناسب، واستولينا على كل ما يملكان، وكانت هذه الحقيبة ضمن ما وجدنا عندهما.

وصلت سيارة المفتش تحمل «تختخ» إلى منزله ... وبعد دقائق اجتمع المغامرون الخمسة ... وقدَّم «تختخ» الحقيبة إلى «عاطف» قائلًا: لقد كادت هذه الحقيبة تُكلِّفني حياتي.

واستمع الأصدقاء من «تختخ» إلى أغرب وأخطر مغامرةٍ مرَّ بها.


هنداوي